جامعة قاصدي مرباح ورقلة
كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية
قسم العلوم الإجتماعية

شعبة: الفلسفة

تخصص: فلسفة عامة

مذكّرة مُقَدَمة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة والموسُومة بـ:

الترانسندنتاليَّة في فينومينولوجيا هُوسّرل

إعداد الطالبة: رقية بن طشة

إشراف الأستاذ: د. إبراهيم كراش

أعضاء لجنة المناقشة:

د. أحمد زيغمي	أستاذ محاضر –أ–	جامعة ورقلة	رئيسًـــــــا
د. إبراهيم كراش	أستاذ محاضر –أ–	جامعة ورقلة	مشرفًا ومقررًا
د. عمر برابح	أستاذ محاضر –أ–	جامعة ورقلة	مناقشًـــــا

السنة الجامعية: 2019 /2020

الإهداء:

إلى أمي

الى أبي

إلى أسرتي

إلى كل من دعمني وساعدني

أهدي هذا العمل.

كلمة شُكر

أتقدم بخالص شكري واحترامي إلى أستاذي المشرف د. ابراهيم كراش الذي أفادني بتوجيهاته وارشاداته القيمة، كما أشكر الأساتذة المناقشين، وأتوجه بالشكر الجزيل الى جميع أساتذتي من قسم الفلسفة الذين ساهموا في تكويني الدراسي، وكل من ساعدني في انجاز هذا العمل خاصة الأستاذ يوسف حجوب والأستاذ رياض طاهير.

مقدمة

مقدمة

تعتبر الفلسفة الغربية المعاصرة فلسفةً للأزمة؛ أزمة الفلسفة والعلم التي شهدها العالم الغربي نظرًا لانبهاره الشديد بالمنهج التجريبي بعد تلك الإكتشافات الباهرة التي حققتها الأبحاث العلمية للقرن التاسع عشر، والتي دعمت مزاعم النزعة السيكولوجية في قيام المعرفة انطلاقًا من التجربة الحسية المحضة. ولقد كان بروز الروح التقنية للعصر ذا أثر وخيم على القيم الروحية للإنسان وفهمه لذاته وللعالم المحيط به، بسبب الثقة المطلقة في الموضوعية العلمية وإقصاء اليقين الذاتي من دائرة العلم، فكانت أزمة الفلسفة نتيجة حتمية لتغييب المساءلات الإنسانية التي تحدد قيمة الإنسان ودوره الذاتي في اكتساب المعرفة، كما كانت أزمة العلم نتيجة للفصل التام بين العالم الإمبريقي وعالم الحياة الإنسانية، الأمر الذي خلق ضرورة مُلّحة للعودة إلى الذاتية الترنسندنتالية التي دشنتها الفلسفة الديكارتية وطورتها الترنسندنتالية الكانطية، من خلال الإتجاه الفينومينولوجي لهوسّرل[*] (Husserl :1859-1938) باعتباره مشروعًا ترانسندنتاليًا اصلاحيًا، يزاوج بين مكتسبات المعرفة الإمبريقية وفعاليات المعرفة الذاتية الخالصة، وبين عالم الطبيعة وعالم الوعي بمراعات المعيش الانساني وتاريخيته المعاشة.

وسيختص هذا البحث بدراسة فلسفية ابستيمولوجية حول موضوع؛ "الترانسندنتالية في فينومينولوجيا هوسّرل"، وستتم دراسته ضمن بعدين أساسين؛ الأول هو البعد المنهجي لترانسندنتالية الفينومينولوجيا، والثاني هو البعد الفلسفي لترانسندنتالية نظرية عالم المعيش.

---

* إدموند هوسّرل (Husserl Edmund: 1859-1938)؛ فيلسوف ألمانيّ، وُلِدَ في بروسنتيز (Prossentiz) بمنطقة مورافيا في فرايبورغ، تتلمذ على يد "فرانتز برنتانو" عام (1884). اشتغل بالتدريس في عدّة جامعات ألمانيَّة، منها هال، وغوتنغن، وفريبورغ. وقد استقرّ في هذه الأخيرة إلى غاية تقاعده واعتزاله عام (1938). وكان "هايدغر" من أهم تلامذته المباشرين. من مؤلفاته": فلسفة الحساب" (1891) ، و"مباحث منطقية" (1900)،" أفكار مسددة من أجل فينُومينُولوجيا خالصة وفلسفة فينُومينُولوجية" (1913)، "المنطق الصوري والمنطق الترنسندنتالي" (1929)، "تأملات ديكارتيَّة" (1929)، "أزمة العلوم الأوروبية والفينُومينُولوجيا الترنسندنتالية" (1936)، "التَّجربة والحكم" (1939).[جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2006، ص ص 712، 713.]

تكمن أهمية هذا الموضوع في أن فكرة الترانسندنتالية في حد ذاتها باتت محل اهتمام كبير في الأوساط الفلسفية المعاصرة ومحورًا محركاً لفلسفات عديدة على غرار فلسفة التداولية الترانسندنتالية لـ "آبل كارل أوتو"[*] (Apel Karl-Otto: 1922-2017)، وذلك نظرًا لارتباطها الوثيق بمبادئ التفلسف الأصيل والذي يستوجب التعالي عن كل موقف ساذج، بالإضافة الى أن تناول هذا الموضوع المميز في دائرة البحث الفينومينولوجي يزيد من أهميته الفلسفية لكون أن الفينويمنولوجيا –عمومًا– وفينومينولوجيا "هوسرل" –على وجه الخصوص– تعد من أهم التيارات الفكرية في القرن العشرين، بإعتبارها منهجًا منفتحًا، وحجرا أساسًا لأفكار العديد من الفلاسفة اللاحقين، أمثال؛ "هايدغر" (1889-1976: Heidegger)، و"ريكور" (1913-2005: Paul Ricoeur)، و"ماكس شيلر" (1874-1928: Max Scheler).

لقد تم التطرق إلى هذا الموضوع انطلاقًا من العديد من الدوافع الموضوعية والذاتية. فأما ماهو موضوعي؛ فيتعلق بغموض المسألة الترنسندنتالية في الفلسفة وقلة الدراسات في مجال الفكر الترنسندنتالي –إن لم نقل غيابها– في البحوث الأكاديمية، أو الإكتفاء بقدر ضئيل من الإهتمام به، بالمقارنة بأهميته الفكرية ومحوريته الهامة، كما أن اقتران موضوع الترانسندنتالية بالفينومينولوجيا يعد مجالاً مهمًا للبحث، نظرًا لإهمية البحث الفينومنولوجي وتأثيره في الدراسات المعاصرة بإعتباره مجالاً خصبًا للمزيد من الأبحاث المتواصلة. أمّا ماهو ذاتي فيتعلق بالرغبة الملحة بالبحث في المجال الفينومينولوجي ومسائله المختلفة، وكذلك بسبب الإهتمام الخاص بأفكار "هوسّرل" بإعتبارها مُنطَلَقًا لكل

* آبل كارل أوتو (Apel Karl-Otto: 1922-2017)؛ فيلسوف ألماني معاصر، من رواد الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت، يمثل ما يسمى بالتداولية الترانسندنتالية، من أهم أعماله "تحويل الفلسفة" (Transformation de la philosophie) الذي أصدره سنة (1973)، وهو أهم الأعمال الأساسية التي تعبر عن مشروعه الفلسفي، في تحويل الفلسفة إلى تداولية ترانسندنتالية. [محمد بوحجلة، مشروع تحويل الفلسفة إلى تداولية ترانسندنتالية عند كارل اوتو آبل، الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، قسم العلوم الاجتماعية، العدد 19، جانفي 2018، ص 221.]

فينومينولوجيا مقبلة، بالإضافة إلى أن ترانسندنتالية الفينومينولوجيا هي موضوع غامض ومثير للفضول الفلسفي ويشد الباحث للخوض فيه.

لقد عاصر هوسّرل أزمة العلوم الأوروبية، مما جعله يتأثر بمظاهر هاته الأزمة ويحاول معالجتها من خلال مشروع الفينومينولوجيا الترنسندنتالية، والإشكال المطروح هو: هل يمكن لفينومينولوجيا هوسّرل أن تتضمن حلاً ترانسندنتاليًا للأزمة؟ وبعبارة أخرى؛ إلى أي مدى يمكن لفينومينولوجيا هوسّرل أن تمثل موقفًا ترانسندنتاليًا يتجاوز أزمة العلوم الأوروربية؟

وتتضمن هاته الإشكالية العامة، ثلاث مشكلات فرعية رئيسية:

1. كيف تتحدد دلالة الفينومينولوجيا والمفهوم الترانسندنتالي؟
2. كيف يتم استئناف المفهوم الترانسندنتالي ضمن فينومينولوجيا هوسّرل؟
3. كيف تتأسس ترنسندنتالية الفينومينولوجيا باعتبارها منهجًا ونظرية لعالم المعيش؟

وللإجابة على هاته التساؤلات، تم الإعتماد على خطة منهجية تتناول الموضوع بشكل مفصّل، بداية مع مقدمة تمهيدية للموضوع، ثم ثلاث فصول ينقسم كل منها إلى مبحثين فرعين. في الفصل الأول المعنون بـ "مفاهيم حول الفينومينولوجيا والمسألة الترنسندنتالية"، يتم ضبط المصطلحات الأساسية للموضوع، وينقسم إلى مبحثين؛ الأول؛ "في معنى الفينومينولوجيا"، والثاني حول "حدود مفهوم الترنسندنتالي"، أمّا الفصل الثاني المعنون بـ "الاستئناف الفينومينولوجي لمفهوم الترنسندنتالي" يوضح انتقال الدلالة الترانسندنتالية إلى فينومينولوجيا هوسّرل، فالمبحث الأول؛ "محاولات في التأصيل الترنسندنتالي" يعرض نماذج فلسفية تناولت المفهوم الترنسندنتالي قبل طرحه الفينومينولوجي، بينما المبحث الثاني؛ "هوسّرل والتحوّل نحو مفهوم الترنسندنتالية" يعرض استئناف هوسّرل للمفهوم السابق ضمن مشروع الفينومينولوجيا الترنسندنتالية، وفي الفصل الثالث المعنون بـ

"ترانسندنتالية الفينومينولوجيا والفينومينولوجيا الترنسندنتالية"، تبرز تجليات الفكر الترنسندنتالي في المشروع الفينومينوجي لهوسّرل في جانبه المنهجي والفلسفي، فالمبحث الأول؛ "التأسيس الترانسندنتالي للمنهج" يوضح البعد الترانسندنتالي للمنهج الفينومينولوجي، أمّا المبحث الثاني؛ "النظرية الترانسندنتالية لعالم المعيش" فيوضح موقع الفينومينولوجيا بالنسبة لأزمة عالم المعيش من حيث هي فلسفة ترانسندنتالية وحل لأزمة العلوم الأوروبية، وفي الختام؛ خاتمة لاستخلاص النتائج العامة للبحث.

تم الإعتماد في دراسة هذا الموضوع على المنهج التحليلي التاريخي في الفصل الأول، لتحليل المفاهيم وضبط دلالاتها الاصطلاحية والوقوف على تطورها الكرونولوجي. كما تم الإعتماد على المنهج التحليلي الجدلي الذي تخلل جميع الفصول، وتم استخدامه من أجل بيان ديالتيكية المناخ الفكري الذي نشأت فيه الفينومينولوجيا الترانسندنتالية، والآراء الجدلية لهوسّرل في مشرورعه الفكري، بالإضافة إلى المنهج التحليلي النقدي لتحليل الأفكار ومناقشة مضمونها، والذي تم توضيفه في الفصل الثالث بشكل أساسي.

أخيرًا لابد من القول أن هذا البحث –وكغيره من البحوث العلمية والفلسفية السابقة– لم يسلم من الصعوبات والعوائق التي اعترضته، حيث كانت هناك تحديات ناجمة عن غموض المفهوم الترنسندنتالي، وقلة المصادر والمراجع التي تحدد المعنى الدقيق لكرونولوجيته التاريخية ضمن تطوره الفلسفي، كما أن تعدد الترجمات الخاصة بالمصطلح يجعل التوصل إلى ترجمته الدقيقة أمرًا صعبًا، بالإضافة إلى غموض كتابات هوسّرل وأفكاره الفينومينولوجية لاسيما في الحقل الترنسندنتالي، والذي لطالما كان حقلاً مثيرًا للجدل، ولكن هاته الصعوبات، لم تعني الحيلولة دون البحث في الموضوع وإنجازه، بل كانت بمثابة دافع أكبر –للباحث– من أجل تقديم إضافة جديدة لإثراء البحث الفلسفي.

الفصل الأول: مفاهيم حول الفينومينولوجيا والمسألة الترنسندنتالية.

المبحث الأول: في معنى الفينومينولوجيا.

المبحث الثاني: حُدُود مفهوم الترنسندنتالي.

توطئة

تعتبر الفينومينولوجيا (La phénoménologie) من أبرز التيارات الفكرية في القرن العشرين، وذلك لإهتمامها بأهم القضايا الفلسفية التي تمس الحياة الإنسانية المعاصرة، ولا ننسى أن الفينومينولوجيا قد نشأت–أساسًا– في محاولة لحل أزمة الوعي (conscience)[*] وما أفرزته من مشكلات للعلم والفلسفة، بعدما سيطرت النزعة الموضوعية للعلم الحديث على رؤية العالم، وفقدت الفلسفة قيمتها المعرفية، الأمر الذي جعل هوسّرل (1859-1938: Husserl) يرسي دعائم مشروعه الفينومينولوجي ليعيد للفلسفة أهميتها في فهم الحياة الإنسانية في إطار ما أطلق عليه اسم "الفينومينولوجيا الترنسندنتالية" (La phénoménologie Transcendantale) التي باتت محورًا للدراسات المعاصرة، ومرتكزًا لموضوع الدراسة الراهنة، ولعل اللبس الحاصل في فهم معنى الفينومينولوجيا –إضافة للغموض المحيط بمصطلح الترنسندنتالي– كان دافعًا للخوض في مقاربة مفاهيمية لهاته المفاهيم وتسليط الضوء عليها من أجل النفاذ –لاحقًا– إلى معنى الفينومينولوجيا الترانسندنتالية، فكيف تتحدد الدلالة الفلسفية للمفاهيم المُؤَسِسَة للفينومينولوجيا الترانسندنتالية ابتداءًا من مفهوم الفينومينولوجيا وصولاً الى مفهوم الترانسندنتالي؟

[*] يدل مصطلح الوعي (conscience) على حركة الفكر أو الفكر ذاته، وانطلاقا من مفهوم القصدية وكوجيتو ديكارت وترانسندنتالية كانط، فإن هوسرل يصف الوعي بأنه « وعي بشيء ما» أو موضوع ما.

[Louise-Marie [Morfaux, Nouveau vocabulaire de la philosophie et des sciences humaines, ARMAND COLIN, Paris , 2005, p 98.]

المبحث الأول: في معنى الفينومينولوجيا

لغةً؛ الفينومينولوجيا (phénomènologie) لفظ يتكون من «الكلمتين اليونانيتين (phainômenon) و(logos)، والكلمة الأولى مشتقة من الفعل اليوناني (phainô) بمعنى يظهر أو يخرج الى النور، من (pha) الهندواوروبية، وترتبط بفكرة النور والوضوح. والظاهرة[*] (phianômenon) هي ما يتبدى إلى النور. والكلمة (logos) [**] تعني القول، وهو ظهور المعنى الخفي بحروف منطوقة. والفينومينولوجيا **(حرفيًا)** هي علم الظواهر[1]». وتترجم الفينومينولوجيا إلى مصطلحات عديدة مثل؛ الظواهرية أو الظاهراتية أو حتى الفيمياء، مثلما وردت في ترجمات مراد وهبة. وقد تم الأخذ –موضوعيًا– بالترجمة الحرفية "فينومينولوجيا" للدلالة على مصطلح (phénomènologie) بإعتبارها الترجمة الأدق استعمالاً وضبطًا للمفهوم، ولكي لا يختلط مصطلح "الفينومينولوجيا" بغيره من المصطلحات الشبيهة –خاصة– مصطلح (phénomènisme)؛ أي "الظاهرية" التي تعني المذهب

---

* الظاهرة (phénomène) في الدلالة اللغوية مشتقة من الفعل "ظهر"؛ أي تبين و" الظاهر" هو ما تبين من الشيء وظاهر الشيء يقابله باطنه ويتبعه معنى الظاهرة. [انظر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط8، بيروت –لبنان، 2005 ص 434]. أما فلسفيًا، فالظاهرة هي المعطى الحسي، وتطلق بالمعنى الأوسع على كل الظواهر التي تشكل مادة العلوم. وعند كانط هي كل ما يكون موضوع اختبار ممكن، ويعارضها مع الحقيقة العقلية (Noumen) أو الشيء في ذاته (Sos en soi). [اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني H-Q، تعريب احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2002، ص ص 970- 972.]

** لوغوس (logos) هو لفظ يوناني، وهو اسم مشتق من الفعل (légein)؛ أي يقول، ولهذا فاللوغوس قول، وهذا القول قد يكون كلمة أو عبارة. و فلسفيا؛ فإن اللوغوس حسب "هيراقليطس" هو العقل الكوني الذي يحكم الكون، والحكمة تكمن في التوافق معه كما يرى "الرواقيون"، وهو الحجة عند "بروتاغوراس" السوفسطائي. أما عند "أفلاطون" يعني المثال الذي خلق العالم، ويتناول "أرسطو" اللوغوس في كتابه المعنون: "الأخلاق الى نيقوماخوس"، في الفصل السادس حيث يقول بأن اللوغوس يدرك الكلي الذي هو موضوع العلم. وفي فلسفة "فيلون" اللوغوس هو الوسيط الذي خلق الله به العالم، أو الملاك المذكور في التوراة، حيث ظهر للأباء وأعلن لهم أوامر الله. [وهبة مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 1998 ص 544.]

[1] عبد المنعم حنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ط3، 2000، ص613.

الظاهري الذي شاع في فرنسا على يد "رنوفييه"[***] (Renouvier : 1903-1815)، فهو مذهب لا يؤمن بأي شيء سوى الظواهر، خلافًا للمفهوم المزعوم عن الشيء في ذاته[1]، بمعنى لا وجود لأي حقيقة عقلية كامنة خلف الظواهر الحسية. وهاته الدلالة تختلف عن الدلالة الاصطلاحية لمصطلح "الفينومينولوجيا".

اصطلاحًا؛ تعني الفينومينولوجيا –بالمعنى الأوسع– فلسفة وصفية للتجربة[2] الشعورية، فهي منهج فلسفي لوصف (Description) الظواهر ضمن نطاقها الشعوري، كما تدل –بشكل خاص– على العلم الذي أسسه "هوسّرل" (Husserl :1938-1859) لدراسة الظواهر المتبدية في الشعور دراسة وصفية، مع تحليل (Analyse) الشعور وكشف العمليات الإدراكية ومكوناتها[3]. وبالتالي فإن مفهوم الفينومينولوجيا يحمل ثلاث مدلولات أساسية تضم؛ الفلسفة، والعلم، والمنهج، الذي يقوم بوصف الظواهر وتحليلها في الشعور.

يعتبر مصطلح الفينومينولوجيا مصطلحًا حديثًا نسبيًا، ويمكن تتبعه من القرن الثامن عشر، حيث يرجع تاريخه إلى "نظرية المظهر" وهو عنوان الباب الرابع من كتاب "لامبرت"[*] (Lambert :1777-1728) "الأورغانون الجديد" (Nouvel Organon 1764) ومن المحتمل جدًا أن يكون "لامبرت" هو من ابتكر هذا المصطلح. وجرى استعمال لفظة "فينومينولوجيا" في معاني متباينة رغم ارتباطها بنفس الإشتقاق، فقد استعملها "كانط"

---

* شارل رونوفييه (Charles Renouvier : 1815-1903) ؛ فيلسوف فرنسي، مؤسس المذهب الظاهري في فرنسا، ومن دعاة المذهب النسبي في المعرفة، له عدة مؤلفات منها: "محاولات في النقد العام" (1854-1864)، "علم الأخلاق" (1869)، "المونادولوجيا الجديدة" (1899).[جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، 2006، ص 341.]

[1] اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني H-Q ، المرجع السابق، ص 973 .

[2] Jonathan Rée and J. O. Urmson, The Concise Encyclopedia of Western Philosophy, Routledge, the USA and Canada, Third Edition, 2005, p 280.

[3] سماح سماح رافع محمد، المذاهب الفلسفية المعاصرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1973، ص95.

* لامبرت جان هنري (Lambert jean henri)؛ فيلسوف وفلكي ورياضي، سويسري– ألماني، ومن أصل فرنسي، اذ ولد في مقاطعة الازاس الحدودية سنة (1728)، وتوفي في برلين سنة (1777)، له عدة اكتشافات علمية منها؛ صيغة المذنبات، علم المثلثات، وعلم المنظور، والتشكيك في مسلمة المتوازيات، والقانون الأساسي لقياس شدة الضوء، كما له إسهامات في نظرية المعرفة والمنطق وخاصة ضمن مؤلفه؛ "الأورغانون الجديد" (1764).[جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص ص570- 571..]

(Kant :1804-1724) في كتابه "المبادئ الميتافيزيقية الأولى لعلم الطبيعة" (1786 Fondements métaphysiques des sciences naturelles) الذي يتناول فيه الحركة والسكون في علاقتهما بالتمثيل؛ أي بوصفها سمات عمومية للظواهر، كما استعملها "هيغل" (1831-1770: Hegel) أيضا حين أطلق اسم "فينومينولوجيا الروح" (Phénoménologie de 1807 l'esprit) على تاريخ المراحل المتعاقبة والتقريبات والتعارضات التي ارتقت بها الروح من الحس الفردي إلى العقل الكلي[1]، واستعملها "هاملتون"[*] (Hamilton :1788-1856) في كتابه "محاضرات في المنطق" (ectures on logique 1858) للدلالة على فرع من "علم الفكر"، مسؤول على ملاحظة معظم الظواهر وتعميمها[2]، كما استعملها "هارتمان"[**] (Hartmann :1906-1842) كذلك في "فينومينولوجيا الوعي الأخلاقي" (Phénoménologie 1879 de la conscience morale) حين أوجب أن تكون الفينُومينُولوجيا مجردة وكاملة قدر الإمكان، لدراسة وقائع الوعي الأخلاقي المعروفة بالخبرة، وفهم علائقها، والبحث الاستنباطي للمبادئ التي يمكن ردها اليها[3]. ثم برز مصطلح الفينومينولوجيا مع "هوسّرل" (1938-1859: Husserl) حين جعلها اسمًا لفلسفة متكاملة أسسها في القرن العشرين، حيث أصبح مصطلح "الفينومينولوجيا" مرتبطا بهوسّرل في الفلسفة المعاصرة[4].

ينظر المفكرون للفينومينولوجيا من زاويتين مختلفتين؛ الأولى تحددها باعتبارها منهجًا، والثانية تعتبرها نسقًا فلسفيًا. فأمّا الفينومينولوجيا باعتبارها منهجًا؛ فتعني مجهود

---

[1] اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفة، المجلد الثاني H-Q ، المرجع السابق، ص 974.

[*] هاملتون ويليام بارت (Hamlton william bart: 1788-1856)؛ فيلسوف اسكتلندي، اهتم بدراسة اللغة والفلسفة الأمانية، له عدة مؤلفات أهمها: "فلسفة اللامشروط" (1829)، و"مناقشات حول الفلسفة والأدب، وحول اصلاحات التربية والجامعة "(1852)، "محاضرات في المنطق" (1858). [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص 693.]

[2] وهبة مراد، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص477 .

[**] هارتمان ادوارد فون (Hartmann Eduard von : 1842-1906)؛ فيلسوف ألماني، درس الفلسفة واشتغل بها، أهم أعماله؛ فلسفة اللاشعور (1869)، الأساس النقدي للواقعية المتعالية، فينومينولوجيا الوعي الاخلاقي (1879)، فلسفة الدين (1881)، السيكولوجيا الحديثة (1901). [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص689.]

[3] اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني H-Q، المرجع السابق، ص 974.

[4] سماح رافع محمد، المذاهب الفلسفية المعاصرة، المرجع السابق، ص 96 .

يرمي إلى تحليل ماهيات[*] الظواهر الحسية؛ أي تحليل دلالات ترنسندنتالية تدرك بالحدس مباشرة. أمّا الفينومينولوجيا بوصفها نسقًا فلسفيًا؛ فهي فلسفة ترانسندنتالية، تهتم بالمعنى وتسعى لتسليط الضوء على المبدأ الأخير لكل حقيقة. وهذا المبدأ هو ذلك الذي يستمد منه كل شيء معناه، إنه "الأنا الترنسندنتالي" الذي يتعالى على العالم لكنه منصب عليه. وليس الأنا الترنسندنتالي عنصر وحيد، بل هو عنصر ينعرض في العالم مع كثرة من الذوات لتكوين المعنى، وهكذا تصير موضوعية العالم في إطار بينذاتية ترانسندنتالية[1]. لكن يمكن القول –بشكل عام– بأن الفينومينولوجيا الهوسّرلية هي منهج منفتح أكثر من كونها مجرد نسق فلسفي منغلق، وذلك استنادًا الى رأي اكبر منظريها "هوسّرل" (Husserl :1859-1938) و"هايدغر" (Heidegger :1889-1976)، حيث أكد هوسّرل نفسه بأن الفينومينولوجيا تدل على « منهج وعلى موقف للفكر[2]»؛ أي موقف ومنهج فلسفي لتحليل الماهيات. وضمن هذا السياق يقر "هايدغر" في الفقرة (§7) من كتابه "الكينونة والزمان" إن الفينومينولوجيا «تعني ابتداءًا مفهومًا منهجيًا. وهي لا تعني "ما" المادية لموضوعات البحث الفلسفي، بل "كيف"[3]» ، وهذا ما يؤكد الطابع المنهجي للفينومينولوجيا، فهي تبحث في شروط المعرفة وكيفياتها التي تتأسس عليها، وبالتالي هي منهج معرفي مفتوح أكثر من كونها مجرد نسق مغلق، الأمر الذي جعلها تؤثر في العديد من الفلسفات اللاحقة. ويظهر هذا التاثير على مذهب الواقعية الجديدة عند "جورج مور" (George Moore :1873-1958)، وتطور الوجودية عند "هايدغر" (Heidegger :1889-1976) و"سارتر" (Sartre :1905-1980). ومن أهم فلاسفة الفينومينولوجيا –على سبيل المثال لا

---

* الماهية تطلق غالبًا على الشيء المتعقل. [عبد المنعم حنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، المرجع السابق، ص728]. والماهية (Essence) في الفينومينولوجيا هي ظواهر الموضوعات المتبدية في الشعور الخالص، وتعتبر تصورًا عقليًا، لان رؤية الماهيات (Wesenschau) تكون رؤية عقلية.

[1] اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني H-Q ، المرجع السابق، ص 975.

[2] هوسّرل ادموند، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة فتحي انقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007، ص 56.

[3] هيدغر مارتن، الكينونة والزمان تر: فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت –لبنان، 2012، ص 87.

الحصر – يوجد "رومان انجاردن"[*] (Roman Ingarden :1910-1893)، و"بول ريكور" (2005-1913 :Paul Ricoeur)، و"ايمانويل ليفيناس" (Emmanuel Levinas: 1906-1995)، بالإضافة الى "ماكس شيلر" (Max Scheler :1928-1874) باعتباره من أكبر فلاسفة الفينومينولوجيا تأثيرًا الى جانب هوسّرل[1].

يعرِّف هوسّرل الفينومينولوجيا في كتابه "فكرة الفينومينولوجيا" بأنها « تحليل للماهية وبحث في الماهية في نطاق نظري محض[2]»؛ أي أنها دراسة تحليلية للماهيات المحضة. وبإضافة إلى هذا التعريف، صاغ هوسرل للفينومينولوجيا تعريفات متعددة، خلاصتها أنها تعني؛ منهجًا وعلمًا كليًا صارمًا. أمّا عن مفهوم الفينومينولوجيا في فكر هوسّرل فقد تطور من خلال التحولات التي عرفتها حياته الفكرية، والتي بدأت مع أبحاثه الرياضية حين كتب مؤلَفه "فلسفة الحساب" (La philosophie de l'arthmetique 1891)، لكن أفكاره الفينومينولوجية لم تبرز إلاّ مع مؤلفه الأساسي أبحاث منطقية (Les Recherches logiques 1900-1901) الذي تأسست فيه الفينومينولوجيا بمعنى؛ تحليل للماهيات الخالصة، لكن في عام (1913) نشر هوسّرل كتاب "افكار مُسَدَدَة حول الفينومينولوجيا الخالصة والفلسفة الفينومينولوجية" (Des Idées directrices pour la Phénoménologie pure et la Philosophie Phénoménologique)، لتتحول الفينومينولوجيا إلى فلسفة أولى، تمهيدًا لمثاليتها الترنسندنتالية التي تتأسس مع مؤلف "تأملات ديكارتية" (Méditations cartésiennes 1929) بوصفها منهجًا ترنسندنتاليًا، ثم تتطور مع مؤلفات لاحقة، ولا سيما مؤلف "أزمة العلوم

[*] رومان انجاردن (Roman Ingarden :1910-1893)؛ فيلسوف بولوني، كان تلميذا لهوسرل في فرايبورغ، ويعتبر أول من أدخل الفينومينولوجيا الى بولونيا، ومن أبرز ممثليها، غير فينومينولوجيا انجاردن كانت أكثر واقعية من فينومينولوجيا هوسّرل، وقد طور انجاردن الفينومينولوجيا إلى المجال الأدبي والإستيطيقي، وخصوصًا ضمن كتاب العمل الفني الأدبي (1931). [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص 105.]

[1] ا.م يوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: عزت قرني، عالم المعرفة، الكويت، العدد 165، 1992، ص 178.

[2] هوسّرل ادموند، فكرة الفينومينولوجيا، المصدر السابق، ص 89.

الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية"[1] (La Crise des sciences européennes et la Phénoménologie transcendantale 1936) لتصبح الفينومينولوجيا الترانسندنتالية؛ علمًا كليًا صارمًا، وفينومينولوجيا مقوّمة[*].

إن الحديث عن الفينومينولوجيا هو الحديث عن مشروع فينومينولوجي، صاغه هوسّرل في القرن العشرين، بعد احتدام أزمة غياب المعنى التي شكلتها التطورات العلمية منذ القرن التاسع عشر، حيث خلقت هاته التطورات صراعًا بين الإتجاه التجريبي الواقعي، والاتجاه العقلي المثالي، مما أدى إلى طغيان النزعة العلمية الموضوعية، وتغييب الفلسفة ومساءلاتها الإنسانية، فظهر الإتجاه الفينومينولوجي بهدف إعادة الإعتبار للفلسفة وعلميتها[2]، والتأسيس لمعرفة يقينية متحررة من جميع الأفكار والأحكام المسبقة، وهو الهدف الذي حدده هوسّرل في مقاله "الفلسفة علمًا صارمًا" (La Phénoménologie comme science rigoureuse) عام (1911).

تأسست الفينومينولوجيا انطلاقًا من العديد من المصادر الفكرية، حيث أخذ هوسّرل من الفلسفة الإغرقو–غربية مفهوم "المثالية"، وخاصة تلك المثالية التي أسسها أفلاطون (Platon :347-427 avant JC) ضمن "أسطورة الكهف"، وفكرة تأسيس "العلم الكلي"، الذي يدرك الماهيات الثابتة، وقد اقتبس من فلاسفة العصور الوسطى عن طريق أستاذه "برنتانو"[**] (Brentano : 1838-1917) فكرة "القصدية" التي حددت علاقة الذات بالموضوع

[1] ا.م يوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، المرجع السابق، ص 180.

[*] يطرح هوسّرل فكرة التقوم الفينومينولوجي لمجاوزة كوجيتو الذاتية المنغلقة إلى نوع من الوعي التذاوتي بالعالم، حيث يكون التقوّم نوعا من الوعي الذاتي في إطار بينذاتية ترنسندنتالية.

[2] هوسّرل ادموند، الفلسفة علما صارما، تر: محمود رجب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2000. ص 29.

[**] برنتانو فرانز (Brentano franz: 1838-1917)؛ فيلسوف ألماني، إتجه نحو أرسطوطاليسية محدثة، تغلب عليها النزعة التجريبية في مبادئها ومناهجها، عمل أستاذًا في جامعة فيينا، وكان له تأثير بالغ على تلاميذه –خصوصًا– هوسّرل. من مؤلفاته: "في مختلف دلالات الوجود حسب أرسطو" (1862)، "في تصنيف الظاهرات النفسية" (1911). [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص 169.]

في علم النفس. كما عرف من الكوجيتو الديكارتي فكرة "الذاتية" وقيمة البداهة واليقين الذاتي. مثلما استفاد من مونادلوجيا لايبنتز (Leibniz :1646-1716) في فكرة "المونادات" المتفردة والمتميزة بالوعي الذاتي، والذي تشعر من خلاله بوجود المنادات الاخرى. وقد تأثر بـ "الموضوعية الذاتية"[1] لهيوم (Hume David :1711-1776)، واهتم بتطوير الآراء الكانطية –خاصة– المتعلقة بـ "الفلسفة العلمية الترنسندنتالية"، وإضافة لذلك فقد أخذت فينومينولوجيا هوسّرل من –المذهب الظاهري– فكرتها المحورية "دراسة الظاهرة"، أو "التوجه إلى الأشياء ذاتها" دون فصل حقيقة الشيء عن ظاهره، ومن الجدير بالذكر أيضا أن هوسّرل قد تأثر بالكانطيين الجدد وخاصة "ناتورب"[*] (Natorp: 1854-1924) وبآرائه المثالية في المجال الإبستيمي، كما اقتبس من العلم الطبيعي طريقته المنهجية الوصفية، واستفاد من الرياضة تحليلاتها العقلية الدقيقة[2]. لكن على الرغم من أن هوسّرل قد أسس الفينومينولوجيا استنادًا إلى مرجعيات فكرية سابقة، إلاّ أن الموضوعية تقتضي القول؛ بأنه لم يكن مجرد ناقل أو مجتر للأفكار السابقة عليه، بل كان ذا مشروع نقدي تجديدي – خصوصًا– في ما يتعلق بابتكاره لأسس المنهج الفينومينولوجي.

يتميز المنهج الفينومينولوجي بتوجهه الماهوي؛ أي دراسة الماهيات الخالصة تحت شعار "الإتجاه إلى الأشياء ذاتها"، الأشياء بوصفها ماهيات، من حيث هي انعطاءات[*] أو الشيء كما هو معطى للذات، بوصفه ظاهرة متبدية في الشعور، دون فصل حقيقة

[1] محمد محسن الزراعي، مدخل الى الفينومينولوجيا –هوسّرل والمسألة المثالية– مطبعة التفسير الفني، صفاقس، ط1، 2005، ص 104.

[*] بول ناتورب (Paul Natorp: 1854-1924)؛ فيلسوف ومربي ألماني، من الممثلين الرئيسيسن لمدرسة ماربورغ الكانطية الجديدة، وقد طور نقدية كانط باتجاه مثالية منطقية متعالية، من أهم مؤلفاته: "مذهب المثل لدى افلاطون" (1903)، "الأسس المنطقية للعلوم الدقيقة" (1910). [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص 667.]

[2] سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسّرل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1991، ص57.

[*] المعطى يقصد به الموضوع في تمثله الماهوي، والإنعطاء يكون في مجال المحايثة، أي في الوعي من حيث هو بنية غير فعلية في نمط وجودها، وهيئة مثالية متصلة مباشرة بموضوعها. [هوسّرل ادموند، فكرة الفينومينولوجيا، المصدر السابق ص 129.]

الشيء عن ظاهره[1] (خلافًا لمذهب كانط)، كما أن الفينومينولوجيا لا تهتم بما إذا كان المعطى حقيقي أم خيالي فالمهم أنه معطى وهو موضوع للشعور الخالص، لأن الوضع الوجودي غير مهم، حيث أشار هوسّرل في كتابه "فكرة الفينومينولوجيا" إلى أن: «الإدراك والتمثل الخيالي كلاهما على الصعيد نفسه، فالماهية نفسها يمكن تحصيلها بالرؤية والتجريد، وفي الحالتين فإن أوضاع الوجود المفترضة فيهما لا تعنينا في شيء[2].» وما يهم هو المعطى بوصفه ماهية أو(Edos) –كما يصطلح عليها هوسّرل– وهاته الماهيات تمثل المعنى العام لما هو جزئي عرضي في الأشياء الخارجية. وبذلك تهدف الفينومينولوجيا أن تكون علمًا موضوعيًا، يصف الموضوع كما هو معطى للذات. ويرفض هوسّرل النظرية الأفلاطونية لأنها لا تعترف إلاّ بالموضوعات الواقعية. كما يذهب إلى حد القول بأنه وضعي، لأنه يقيم المعرفة على المعطى، لكنه قد خطّأَ الوضعيين كونهم يخلطون بين الرؤية بوجه عام وبين الرؤية الحسية والتجريبية، فهم لا يفهمون بأن كل موضوع حسي له ماهيته، وإن كان الجزئي فيه عرضيًا –من حيث وجوده الواقعي– إلاّ أن في جوهر ذلك العرض توجد ماهية، وهاته الماهية يتعين إدراكها إدراكًا مباشرًا وحدسيًا[3]، ويقصد هوسّرل بـ "الحدس" (intuition)؛ الإدراك العقلي والرؤية العقلية المباشرة للماهيات الخالصة[4]، وفي سياق فكرة حدس الذات للموضوعات الماهوية، تبرز علاقة الذات بالموضوع المدرك، والتي تتحدد –في فينومينولوجيا هوسّرل– من خلال نظريته "القصدية" (Intentionnalité) التي استوحى فكرتها من أستاذه برنتانو.

تعتبر القصدية –فينومينولوجيًا– نظرية لتعالق الموضوع بالذات المدركة له، وتعني القصدية عند هوسّرل؛ أن كل وعي هو وعي بشيء ما؛ أي يقصد موضوع ما ويتجه نحوه، لأن القول بأن: "الوعي هو وعي بشيء ما"، يعني أنه لا يوجد فكر دون موضوع

[1] ا. م يوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، المرجع السابق، ص 184.

[2] هوسّرل ادموند، فكرة الفينومينولوجيا، المصدر السابق، ص 109.

[3] ا. م، بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، المرجع السابق، ص ص 184، 185.

[4] هوسّرل، ادموند، فكرة الفينومينولوجيا، المصدر السابق، ص 130.

الفكر، ولا الأنا المفكر (Cogito) دون الموضوع المفكر فيه (cogitatum)، حيث تدل القصدية على الفكر حين يتوجه نحو موضوعه، وهنا يتجلى المعنى الإشتقاقي للكلمة اللاتينية (intention) ؛ أي "التوجه نحو" أو "القصدية"، وبذلك يحمل الوعي القصدي في ذاته ارتباط الذات بالموضوع[1]. ويصبح الكوجيتو الديكارتي "انا أفكر" –بالنسبة لهوسّرل– "انا أفكر بشيء ما".

يقوم المنهج الفينومينولوجي على خطوتين أساسيتين؛ الأولى سلبية، وهي الإيبوخية (epoch)، والثانية إجابية، وهي الرد (réduction). وتعني الإيبوخية؛ التوقف عن الحكم وأن نضع العالم الطبيعي والخارجي بين قوسين، وهذا لا يعني منهجية ديكارت الملغية للعالم الخارجي، فهوسّرل يقصد بها التوقف المؤقت عن الحكم وعن الإعتقاد الطبيعي في وجود العالم وهكذا ينتقل الإيبوخي من الموقف الطبيعي المقر لوجود العالم، إلى الموقف الفلسفي الترنسندنتالي[2] الذي يعلق الحكم عليه ويضعه بين قوسين[*] وبعد هذا التقويس الإيبوخي، يأتي دور الرد والاختزال.

إذا كان التعليق الإيبوخي يعني الإمتناع المؤقت عن الحكم على العالم، بمعنى أنه نشاط سلبي للحكم، فان الإختزال أو الرد الفينومينولوجي هو نشاط إيجابي يتأسس من خلاله معنى الموضوع وماهيته، حيث يميز هوسّرل بين نوعين من الرد، الأول هو الرد الماهوي (Réduction eidetique)؛ أي رد الخصائص الجزئية العارضة للأشياء الخارجية إلى تحديدات ماهوية عامة وثابتة في الوعي، أمّا الرد الثاني فهو الرد الفينومينولوجي أو الترنسندنتالي (Réduction phénomènologique)؛ ويعني رد الموضوعات إلى كيفيات

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت) ص 86.

[2] هوسّرل ادموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، ترجمة اسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2008، ص ص 640، 641.

[*] إن هذا الوضع بين قوسين، يتألف من عدة عناصر، منها الوضع التاريخي؛ أي غض النظر عن جميع المذاهب والمعتقدات والأفكار السابقة، وهناك أيضا الوضع الوجودي؛ ويعني الامتناع عن أي حكم وجودي مهما كان بديهيًا حتى الاعتقاد في وجود الأنا. وذلك من أجل بلوغ معرفة ماهوية خالصة. [سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسّرل، المرجع السابق، ص145.]

عطائها، أي دراستها كما تبدو للوعي الذاتي[1] في الشعور الخالص، حيث يقوم الأنا الترنسندنتالي (Le mois transandantale) بعملية وصف هاته المدركات كما هي قائمة في الشعور الخالص، وحدسها بقصدية، دون تنظيمها في صورة نسقية تتعارض مع حقيقتها الواقعية، وبعد الحدس الترنسندنتالي تعود الذات إلى العالم الخارجي الذي علقت الحكم عليه، لتحذف منه القوسين وتضفي عليه المعاني الحقيقية التي استخلصتها من الماهيات السابقة[2]، وهاته المعاني هي المعاني الترانسندنتالية الخالصة.

إن معنى الفينومينولوجيا يتحدد بكونها دراسة وصفية للظواهر المتبدية في الشعور الخالص، وهي منهج لا يهتم بما هو موجود من نظريات وأراء سابقة، وإنما يضع كل ذلك بين قوسين في تعليق إيبوخي، ويرد الوقائع الجزئية إلى ماهيات كلية من خلال الرد الماهوي، لتصير معاني ترانسندنتالية خالصة من خلال الرد الترنسندنتالي، فالفينومينولوجيا هي منهج، وفلسفة ترنسندنتالية للمعنى في ظل أزمة غياب المعنى.

بعد تسليط الضوء على معنى الفينومينولوجيا والإشارة الى ترنسندنتاليتها، فإنه لابد من فهم هاته الترنسندنتالية بالوقوف على حدود مفهوم "الترنسندنتالي"، وتعني حدود المفهوم؛ دراسة للمصطلح، وضبطا لدلالته اللغوية والإصطلاحية بمعزل عن المصطلحات الشبيهة، فما هو الترنسندنتالي؟ وكيف تتحدد حدود مفهومه في سياقاته الدلالية المتختلفة؟

[1] هوسّرل ادموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، المصدر السابق، ص 639.

[2] سماح رافع محمد، المذاهب الفلسفية المعاصرة، المرجع السابق، ص ص 109، 110.

المبحث الثاني: حُدُود مفهوم الترنسندنتالي

لغةً؛ الترنسندنتالي (transcendental) هو لفظ أجنبي يترجم إلى اللفظ العربي "متعالي"، وتم الإعتماد على ترجمته الحرفية "ترنسندنتالي" للحفاظ على أصالة المصطلح، وتأصيلا لنشأته مع الفلاسفة السكولائيين، ومن جاؤوا بعدهم في القرن الرابع عشر، والذين أطلقوا اسم (transendentale)[1]، للدلالة على ما تمت ترجمته بالترنسندنتالي.

يرجع لفظ "ترنسندنتالي" للأصل "ترنسندنس" (transcendance)؛ أي "التعالي" الذي يعتبر سمة جوهرية له[2]، وقد ورد في القاموس المحيط أن التعالي، مشتق من الفعل "على" أي ارتفع[3].

وفي معنى قريب يورد المعجم الوسيط أن التعالي من الفعل تعالى، وتعالى الشيء من الأصل "على"، "علوًا"؛ أي ارتفع، ويدل التعالي على الارتفاع[4]. ويمكن القول أن التعالي من الرفعة والسمو، ويعني الارتفاع، وبالتالي فإن "المتعالي"، لغة يعني المرتفع.

أمّا اصطلاحًا؛ يتأسس مفهوم "الترنسندنتالي" (transcendental) من مفهوم "الترنسندنس" (transcendance) باعتباره سمة جوهرية للترنسدنتالي، فالترنسندنس يطلق على ذلك التجاوز الذي يمثله كائن أعلى، يتفوق على جميع الكائنات، ويتجاوزها بلاحدود، هو الإله. كما يطلق أيضًا على حركة الوعي، كونه مرتبط بالموضوع أو غيره من الاشياء الخارجية في العالم. والترنسندس عند كانط هو الكيفية التي تسبق بها المبادئ القبلية كل تجربة ممكنة[5] فتتعالى عليها. وقد استحدث "برغسون" (Bergson :1859-1941) مصطلح

---

[1] عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة (ملحق)، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1996، ص 279.

[2] اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z ، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، ص 1472.

[3] انظر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط8، بيروت، لبنان، 2005، ص 1314.

[4] مجمع اللغة العربية (ابراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، أحمد النجار)، المعجم الوسيط، دار الدعوة، ط 5، القاهرة، 2011، ص 625.

[5] Louise-Marie Morfaux, Nouveau vocabulaire de la philosophie et des sciences humaines, Ibid, p 572.

(transcendance) في فلسفته للدلالة على تجاوز منطقة الشعور أو الفكر والسمو عليها[1]. كما يدل الترنسندس عند "كارل ياسبرز" (Karl Jaspers :1883-1969) على حركة علو متجهة نحو الكائن الأعلى[2]. وبالتالي فإن "الترسندنس" يحمل عدة معاني تختلف بحسب سياقاتها المفاهيمية وتوظيفاتها الفلسفية.

في السياق الميتافيزيقي والثيولوجي[*]؛ يعني الترنسندنس تعالي الإله بوصفه تجاوزا لجميع الكائنات بشكل مطلق.

في المجال الإبستيمولوجي؛ الترنسدنس هو تعالي الوعي باعتباره حركة متجهة من الذات نحو إدراك المواضيع الخارجية، أو تعالي المبادئ العقلية على التجربة الحسية بوصفها سابقة لها (كانط).

في مجال الأخلاق؛ تمثل الترنسدنتالية الأخلاقية علو الإرادة على الطبيعة، وتعالي الإنسان على نفسه (الرواقيون)، لأن الأخلاق الترنسندنتالية هي مجاوزة الذات[3] والتخلص من سجن الطبيعة كي يسمو الإنسان بإرادته على أهواء الجسد.

في المعنى الفينومينولوجي الوجودي؛ يتجه الترنسندنس نحو إدراك ماهية الموضوع الموجود هناك[4]، وهو العنصر الأساسي للآنية عند هايدغر.

وتبعا لتعدد دلالات مفهوم الترنسندنس، تتعدد دلالات مفهوم الترنسندنتالي في تاريخ الفلسفة، فمنذ الحقبة اليونانية إلى الحقبة الحديثة، قد اتخذ الترنسندنتالي معنيين رئيسيين:

---

[1] صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، (د.ط)، 1999، ص 59.

[2] المرجع نفسه، ص 65.

[*] يمكن التنبيه في هذا الشأن إلى فينومينولوجيا إتيقا "الوجه لوجه" لإمانويل ليفيناس ومسألة الثيولوجيا المكثفة فيما بين الله والآخر ضمن نص (Quatre lectures Talmudiques 1968) ونص (Du sacré au saint. Cinq nouvelles lectures talmudiques 1977) ونص (L'au-delà du verset 1982) ونص (A l'heure des nations 1988) ونص (Dieu, la mort et le temps 1993) ونص (Nouvelles lectures talmudique 1996).

[3] صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، المرجع السابق، ص 60.

[4] المرجع نفسه، ص 63.

المعنى الأول قديم ووسيط؛ ويعني التصورات العامة لمفاهيم ترنسندنتالية مثل "الموجود"، "الواحد"، "الخير"، "الحق"، "الجميل". والمعنى الثاني حديث؛ ويعني بالترنسندنتالي الشرط القبلي لكل معرفة ممكنة، أو هو الصورة والمبدأ القبلي[1].

اهتمت الفلسفات القديمة بالفكر الترنسندنتالي –خاصة– ضمن الفلسفات المثالية والثيولوجية، وعلى الرغم من أن مصطلح "الترنسندنتالي" لم يوضع إلاّ في العصر الوسيط، إلاّ أن فكرة الترنسندنتالية هي فكرة قديمة قدم الفلسفة ذاتها، ففي الفلسفة اليونانية، نجد فلسفة أفلاطون (Platon : 347-427 avant JC) أبرزت مفهوم "الترنسندنتالي"، ضمن نظرية "عالم المثل"، بحيث تتعالى المعقولات الثابتة على جميع المحسوسات المتغيرة في عالم الحس، وتستمد ماهيتها من "الخير" المطلق، الذي يتجاوز تعالي الماهيات إلى شيء أعلى منها كرامة وقدرة[2]، فهو الترنسندنتالي، والمثال المفارق للمادة، الذي يتجاوز العالم الحسي بوصفه عقلًا محضًا، أو الحقيقة الكاملة في حد ذاتها. وبعد ذلك جعل أرسطو (Aristotle :322-384 avant JC) مفهوم "الترنسندنتالي" بمعنى "الواحد"[3]، والجوهر الأول باعتباره جوهرًا فعّالاً في العالم خلافًا للمثال الأفلاطوني المفارق الذي يتجاوز العالم بمطلقية، فعلى الرغم من أن الجوهر الأول مفارق للمادة، إلا أنه جوهر فعّال[4]، وهو المحرك الذي لا يتحرك، والمعقول المعشوق، والعلة الأولى للحركة في العالم.

ظهر مصطلح "الترنسندنتالي" (transcendental) في الفلسفة الوسيطية للدلالة على المفاهيم الترنسندنتالية التي تتجاوز مقولات أرسطو، والتي تناسب الموجودات جميعا، ومنها ثلاثة معترف بها دائما هي: الواحد (unum)، الحق (verum)، الخير (bunum)،

[1] عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة (ملحق)، ج1، المرجع السابق، ص 289.

[2] صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، المرجع السابق، ص 86.

[3] عبد الرحمان بدوي موسوعة الفلسفة (ملحق)، المرجع السابق، ص 279.

[4] صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، المرجع السابق، ص 92.

ويضاف اليها مفاهيم أخرى بحسب اختلاف المؤلفين: موجود (ens)، شيء (res)، أي شيء (aliquid)، هو عينه (idem)، مخالفه (diversum)، ضروري (necessarium)، ممكن (contingenes)، بالفعل (actus)، بالقوة (potential)[1]. حيث نجد القديس "توما" (1225-1274: Tommaso)، و"دونس اسكوت" (1266-1308: Duns Scotus) يستعملان "ترنسندنس" (transendans) للدلالة على "خواص الموجود"، أو ما يسميه المتأخرون عليهم من الفلاسفة باسم "ترنسندنتالي" (transendentale) و(transcendentalis) والمرجح أن أول من استخدم هذين المصطلحين هو "فرنسسكو الميروني"[*] (Francisco de moyronnes: 1280-1327) في القرن الرابع عشر[2] ليعبر به عن مفاهيم ثيولوجية حول الإلهيات.

تعرض "توما" إلى مسألة "الترنسندنتاليات" (transcendetales) في كتابه "في الحقيقة" (de verite) في قوله: «إن الفعل يدرك قبل كل شيء، الموجود بما هو موجود، لا موجودًا بعينه جزئيًا، وإنما الموجود بوجه عام؛ المشترك بين كل الموجودات؛ أي تصور الموجود. لتكوين تصور أخر لا يعني اضافة شيء إلى الوجود ليس وجودًا، بل كل ما يضاف إلى الموجود هو موجود أيضًا». ومعنى ذلك أن القديس" توما" قد ربط "الترنسندنتالي" بتصوره للموجود وخواصه، من حيث هو تصور عام ومشترك لكل الموجودات. لكننا نجد مذهب "دونس اسكوت" في الترنسندنتاليات مختلف قليلاً عن مذهب "توما"، الذي يذهب إلى أن ترنسندنتاليات الموجود هي "انفعالات الموجود" (pasiones entes)، وتنقسم إلى نوعين؛ "انفعالات قابلة للعكس" (convertibiles pasiones)، و"انفعالات منفصلة" (pasiones disunctas)

[1] اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط 2، 2001، ص 1475.

[*] فرانسسكو الميروني أو فرانسوا الميروني (Francisco de moyronnes / François de Meyronnes: 1280-1327)؛ فيلسوف ولاهوتي وخميائي بروفنسالي فرنسي، كتب يالاتينية، ينتمي للمدرسة السكولائية، له شروح على أرسطو، وعلى كتاب الأحكام، ومسائل مختلفة، ورسائل في المنطق والفلسفة الأولى والسياسة، سمي بـ "أمير السكوتيين"، لكنه خالف أستاذه دونس سكوت في مسألة الوجود وصلته بالله، وفي السياسة قال بأولوية البابا على الإمبراطور حتى في المضمار الزمني. [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص689.]

[2] عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة (ملحق)، ج1، المرجع السابق، ص 279.

وخاصية الإنفعالات الأولى هي أنها يمكن التعبير عنها باسم: الواحد، الحق، الخير، أما خاصية الإنفعالات الثانية فهي أنها يعبر عنها بأزواج منفصلة مثل: بالفعل، بالقوة، ضروري، ممكن[1]. وعمومًا فإن مذهبي كل من "توما" و"دونس سكوت"، والفلسفة الوسيطية –بشكل عام– قد ربطت مفهوم الترانسندنتالي بالمفهوم الثيولوجي للإله.

بعد الفلسفة الوسيطية واصلت الفلسفة الحديثة الخوض في المسائل الترنسندنتالية، غير أنها فصلت مفهوم "الترنسندنتالي" عن المعنى الثيولوجي، وأصبحت تربطه بالمعرفة ومبادئها، فنجد "باركلي" (Berkeley :1753-1685)، قد استعمل (transcendental maxim)، بمعنى القواعد التي تعم وتشمل كل العلوم الجزئية[2]. واستخدم "كانط (kant :1804-1724) مصطلح "ترنسندنتالي" في كتابه" نقد العقل المحض" (Critique de la raison pure 1781) مقابلاً لمصطلح "تجريبي"، والترنسندنتالي هو كل شرط قبلي، وليس ماهو معطى من معطيات الإختبار[3]. ويمكن القول أن الترنسندنتالي في فلسفة كانط هو ما يجعل التجربة ممكنة من مبادئ وشروط قبلية، وأهم هاته الشروط؛ شرطي الزمان والمكان[4]. بعد ذلك يعرف "شيلينج" (Schelling: 1854-1775) العلم الترنسندنتالي في كتابه "مذهب المثالية الترانسندنتالية" (Idéalisme transcendantal 1800) بأنه: «علم العلم، من حيث هو علم موضوعي محض.[5]» ويعني ذلك أنه يتعالى على جميع العلوم الموضوعية. كما صرح "شوبنهار" (Schopenhauer:1860-1788) في كتابه "الجذر الرباعي لمبدأ العلية الكافي"، (1813) بأن المعرفة الترنسندنتالية هي «تلك التي تحدد وتثبت كل ماهو ممكن قبل التجربة في كل تجربة.[6]»؛ أي أن المعرفة الترنسندنتالية عند "شوبنهاور" هي تلك التي تتعالى

---

[1] عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة (ملحق)، ج1، المرجع السابق، ص 279.

[2] المرجع نفسه، ص 279.

[3] اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z ، المرجع السابق، ص1475 .

[4] Marc Le Ny, Découvrir la philosophie contemporaine, Édition Eyrolles, Paris, 2009, p 74 .

[5] عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة (ملحق)، ج1، المرجع السابق، ص 280.

[6] المرجع نفسه، ص 280.

على التجربة فتسبقها وتُحَدِد –سلفًا– إمكانات التجارب الحسية، وهذا المعنى قريب من المفهوم الكانطي الذي يرى أن الترنسندنتالي هو الشرط القبلي السابق عن كل تجربة ممكنة، إلاّ أن شوبنهاور يتحدث عن المعرفة الترنسندنتالية وليس عن مبادئها الصورية.

ويتعرض "نتشه" (Nietzsche : 1844-1900) أيضا لمفهوم الترنسندنتالي في مؤلفاته المتعددة، وخصوصًا في كتاب "هكذا تكلم زرادشت" (Ainsi parlait Zarathoustra 1883) ، وكتاب "إرادة القوة" (La volonté de puissance 1901)، إذ يشير للترنسندنس الإنساني في فكرة "السوبرمان" بعد أُفول الإله الترنسندنتالي[1] الذي كان سائدًا في المثاليات الترنسندنتالية، ضمن ما يسميه بـ"موت الإله".

يعني المذهب الترنسندنتالي (transcendentalisme)؛ –بالمعنى الأشمل– «اعتقاد في وجود أشياء تتعالى على الخبرة الحسية، أو بطريقة أكثر تأملية، الإعتقاد في إمكان الميتافيزيقا الترنسندنتالية أي الإستدلال الفلسفي الذي يروم إثبات معتقدات تتعلق بكينونات ترنسندنتالية[2]». ومعنى ذلك أن المذهب الترنسندنتالي قد إتحذ معنيين رئيسيين، المعنى الأول معنى ابستيمولوجي؛ ويدل على كل مذهب يؤمن بأشياء تتعالى على التجربة، والمعنى الثاني ميتافيزيقي ثيولوجي؛ ويقصد به المذاهب التي تقوم بالإستدلال على وجود كينونات متعالية على الخبرة الحسية مثل وجود الله.

أمّا بالمعنى الخاص؛ فعادة ما يتم ربط المذهب الترنسندنتالي بمذهب "كانط" وفلسفته "النقدية"، حيث يعرفه عبد المنعم حنفي في معجمه الشامل لمصطلحات الفلسفة بأنه يعني؛ فلسفة كانط "الصورية"، التي ترى أن المعرفة العلمية الحقيقية تقوم على الفكر بما يضفيه من مبادئ صورية، إضافة الى الحس الذي يشكل الموضوع الخارجي[3]. وفي

---

[1] صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، المرجع السابق، ص 233.

[2] تد هوندرتش، دليل اكسفورد، ج1، ترجمة نجيب الحصادي، مراجعة عبد القادر الطلحي، المكتب الوطني للبحث والتطوير، (د.ت)، ص 199.

[3] عبد المنعم حنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، المرجع السابق، ص 190.

نفس المعنى يعرف لالاند المذاهب الترنسندنتالية بأنها «المذاهب التي تسلم بصور ومفاهيم سابقة للإختبار[1]»؛ أي أنها مذاهب تؤمن بوجود مبادئ سابقة عن التجربة الحسية، وهذا المعنى نجده ضمن ترانسندنتالية كانط على وجه الخصوص.

وعلى الرغم من ارتباط المذهب الترنسندنتالي بمذهب كانط، إلا أنه يرتبط أيضا باسم الفيلسوف "امرسون"[(*)] (Emerson : 1803-1882) ومذهبه المثالي، حيث نجد مصطلح (transcendentalisme) مأخوذ من اسم (transendental club) الذي أسسه عام (1836)، وفي هذا السياق يدرج لالاند في معجمه الفلسفي تعريفا آخر لهذا المصطلح، مؤداه أن المذهب الترنسندنتالي يعبر عن «حركة فلسفية ودينية كان امرسون ممثلها الرئيسي، ولم تكن هاته الحركة فلسفة موقوفة، جافة، أو متحجرة، بل كانت ردة فعل مثالية على فلسفة القرن الثامن عشر، وضد الصيغ التي كانت، آنذاك، تسوس الدين والمجتمع[2].» ومنه فإن المذهب الترنسندنتالي قد ارتبط –ابستيمولوجيًا– بالفلسفة الكانطية، أمّا –ثيولوجيًا– فقد ارتبط بامرسون واصلاحاته الدينية.

يشمل الفكر الترنسندنتالي جميع التصورات والأفكار الترنسندنتالية في مختلف المجالات؛ الابستيمولوجية، والأنطولوجية، والاتيقية، والثيولوجية وغير ذلك، إذ تتعدى أفكاره حيز المذاهب الكلاسيكية إلى الإتجاهات المعاصرة مثل؛ ترنسندنتاليات كل من "برغسون" و"ياسبرز". كما يحمل الفكر الترنسندنتالي طابعًا مجردًا يجعله –في أغلب

---

[1] اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z ، المرجع السابق، ص 1478.

[*] امرسون رالف والدو (Emerson Ralph Waldo: 1803-1882)؛ كاتب وفيلسوف أمريكي شمالي، ينحدر من أسرة من أوائل المستوطنين الطهرانيين، ومن سلالة طويلة من رجال الدين المسيحي، ويعتبر من أهم الشخصيات الفكرية في الأوساط الفكرية الأمريكية، لان تعاليمه كانت تركيبًا من الأسس الطهرانية التي طرحت حاجات أمريكا وآمالها ومثلها العليا في القرن التاسع عشر، كما يعتبر امرسون الكاهن الأكبر للمذهب الترنسندنتالي. [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص 105.]

[2] اندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z ، المرجع السابق، ص 1478.

الأحيان– لصيقا بأفكار المذاهب المثالية[*] والثيولوجية، حيث يزاوج الفكر الثيولوجي بين الترنسندنس والمطلقية في تصوره للآله، غير أن "الترنسندنتالي" (transcendental) يختلف عن "المطلق" (absolu)، من حيث أن المطلق يعني اللامحدود واللامشروط واللامتناهي[1]، وهو لا يرتبط بغيره بأي علاقة، أمّا الترنسندنتالي فيرتبط دومًا بعلاقة ما مع غيره[2]، فهو يتعالى عن شيء ما بالضرورة.

ويقترن الترنسندنس بمفهوم "المثال"[**] (idéal) في المثالية الأفلاطونية، التي ترى بأن الترنسندنتالي هو المثال المعقول الذي يتعالى عن الكائنات الحسية، لكن في الضبط الدقيق للمصطلح فإن المثالي، يشمل كل الأفكار والنماذج النظرية المقابلة للوقائع[3]، أمّا الترنسندنتالي فهو معنى مخصوص بأفكار معينة حول موجودات، أو تصورات تتعالى عن الحس والموجودات المادية. وبالتالي فإن المثالي يعبر عن طبيعة الموضوع، من حيث هو موضوع ذو طبيعة نظرية غير مادية، أمّا الترنسندنتالي فيعبر عن مكانة الموضوع وأولويته على موضوع آخر مثل؛ قبلية المبادئ الترنسندنتالية وأولويتها على التجربة الحسية.

---

* المثالية (idéalisme) هي كلمة ظهرت للمرة الأولى عند فلاسفة القرن السابع عشر خاصة مع ليبنتز (leibniz: 1646-1716) في (1702) حين جعل من "المثالي" (idéaliste) مقابلا ل "المادي"(matérialiste)، وأطلق مصطلح "المثالية" على "اللامادية" او "الصورية"، للدلالة على ما يسمى بمذهب الأفكار الذي أسسه أفلاطون حين جعل من الصورة والمثال المعقول جوهرًا للأشياء الحسية في العالم. [اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني H-Q، المرجع السابق، ص ص 585-586.]

[1] وهبة مراد، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص ص 601،602.

[2] صفاء عبد السلام على جعفر محاولة جديدة لقراءة فريدريش نتشه، المرجع السابق، ص 62.

** "المثال" (idéal) هو مصطلح يعني في اللغة الإغريقية، الصورة أو الفكرة، والمثال عند أفلاطون هو الأصل الذي خلقت الموجودات على صورته. [عبد المنعم حنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، المرجع السابق، ص739.]

[3] عبد المنعم حنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، المرجع السابق، ص 739.

وفي نفس السياق يرتبط مفهوم "المفارق"[*] (transcendant) بالترنسندنتالي في الفلسفات المثالية القديمة وخاصة الأفلاطونية باعتبار الترنسندنتالي معقولاً مفارقًا للمادة، كما يتأصل هذا الارتباط في الفلسفات الوسيطية، حيث يعتبر السكولائيون الإله الترنسندنتالي إلهًا مفارقًا للعالم، متعاليًا على كل الموجودات. لكن الإستعمال الحديث لمصطلح ترنسندنتالي، قد جعل له دلالة منفصلة تمامًا عن مفهوم المفارقة، فقد أخذ كانط لفظ "ترنسندنتالي" في تعارض مع "التجريبي" (Empirique) من جهة، ومع "المفارق" (transcendant) من جهة أخرى[1]، بحيث يعتبر الترنسندنتالي شرطًا قبليًا لكل تجربة ممكنة، أمّا المفارق فهو ما يكون خارجًا عن نطاق كل تجربة حسية، وبالتالي يتعذر إدراكه ومعرفته.

إن "الترنسندنتالي" (Transcendantal) هو دلالة فلسفية حول مفهوم متسامي، يرتقي عن المعطيات الحسية والعالم المادي، وهو مفهوم مستقل عن دلالة المفارقة أو المثالية ولا بد من التعالي به إلى مدلوله الدقيق –بكل موضوعية– دون خلط أو لبس أو تحيز، إلى ماليس له من تقريب مفاهيمي. ويعني الفكر الترنسندنتالي؛ فكرًا خالصًا يؤمن بتصورات أو موجودات ترنسندنتالية، ثيولوجيًا أو ابستيمولوجيًا، أو حتى ايتيقيًا. وعلى الرغم من مرافقته للمذاهب المثالية في العديد من الأحيان، إلاّ أنه فكر لا يتحدد بمذهب معين، ويمكن التماسه داخل أي إتجاه فلسفي كان، دون الاكتراث إن كان هذا الإتجاه الفلسفي يشكل مذهبًا، أم إنه محض إتجاه فلسفي حر. وقد برز هذا الفكر في العديد من التيارات والمذاهب الفلسفية من الفلسفات القديمة إلى المعاصرة، فكيف تم التأصيل لمفهوم "الترنسندنتالي" ضمن هاته الفلسفات؟

---

* المفارق هو لفظ استعمله المدرسيون للدلالة على الإله المفارق والذي يتجاوز الموجودات، والمفارق هو الجوهر المجرد من المادة والقائم بنفسه، وعند كانط هو ما يتجاوز التجربة. [وهبة مراد، المعجم الفلسفي، المرجع السابق ص 611.]

1 اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z ، المرجع السابق، ص1475 .

الفصل الثاني: الإستئناف الفينومينولوجي لمفهوم الترنسندنتالي.

المبحث الأول: محاولات في التأصيل الترنسندنتالي.

المبحث الثاني: هوسّرل والتحوّل نحو مفهوم الترنسندنتالية.

توطئة

تستأنف الفينومينولوجيا مفهوم "الترنسندنتالي" ضمن مشروع الفينومينولوجيا الترنسندنتالية، حيث يطرح هوسّرل دلالة فينومينولوجية جديدة لمفهوم "الترنسنتالي"، والذي لا يعد مفهومًا وسيطيًا –لنشأته السكولائية– ولا حديثًا –لتأصيلاته الكانطية– ولا معاصرًا –لارتباطه بفينومينولوجيا هوسّرل– بل هو مفهوم قديم قدم الفلسفة ذاتها، إذ تكونت الأفكار الترنسندنتالية في تاريخ الفلسفة الغربية منذ قيام الفلسفات القديمة وقبل نشأة مصطلح "الترنسندنتالي" (transcendental) مع الفلاسفة السكولائيين، لِتُواصِلَ الفلسفة الحديثة والمعاصرة طرح المسائل الترنسندنتالية نظرًا لأهميتها الفكرية في الدراسات الفلسفية المختلفة، فكيف تم التأصيل الدلالي لمفهوم الترنسندنتالي في تاريخ الفلسفة الغربية ليتم استئناف مدلوله الفينومينولوجي مع هوسّرل؟

المبحث الأول: محاولات في التأصيل الترنسندنتالي

يمكن تتبع ثلاث نماذج رئيسة أبرزت محاولات تأصيلية لمفهوم الترنسندنتالي في تاريخ الفلسفة الغربية، وتتمثل هاته النماذج في المثالية الكلاسيكية لـ "أفلاطون"، وفلسفتي "كانط" و"ديكارت" الحديثتين، وقد تم اختيارها –تحديدًا– لضرورة الوقوف على التجليات الترنسندنتالية المهمة في أفكارها، وكذلك بسبب الأثر البالغ لأفكار كل من "أفلاطون" و"ديكارت" و"كانط" على ترنسندنتالية الفينومينولوجيا لهوسّرل.

أولاً: أفلاطون (Platon : 347-427 avant JC)

لم تعرف الفلسفة الأفلاطونية في القرن الخامس ق.م مصطلح ترنسندنتالي (transcendental) قبل ظهوره مع فلاسفة العصر الوسيط، غير أن ذلك لا يعني أن "أفلاطون" لم يهتم بالفكر الترنسندنتالي، فقد خاض في المسائل الترنسندنتالية، وما يرتبط بها من مفهوم "المفارقة" و"المثال" ضمن فلسفته المثالية التي قام بتأسيسها متأثرًا بالفلسفة السقراطية التي دعت إلى بناء معرفة عقلية تتأمل المثل الكلية الثابتة[1]، وما جعله سقراط مبدأً للمعرفة، جعله أفلاطون مبدأً للوجود[2] في مثالية أنطولوجية توحد بين الوجود والفكر، عرض أسسها في ميتودولوجيا "أسطورة الكهف".

تعرض أفلاطون لمفهوم الترنسندنس من خلال نظريته الشهيرة لـ "عالم المثل"، التي يقسم فيها الوجود الى قسمين؛ عالم "ترنسندنتالي" معقول، وهو عالم المثل الثابتة. وعالم مادي، هو عالم المحسوسات المتغيرة، وتبعا لذلك فان الموجودات تحمل وجهين؛ وجه حقيقي تمثله المثل المعقولة، ووجه ظاهر تجسده المحسوسات[3]، وقد اتضحت هاته

[1] يوسف حامد الشين، الفلسفة المثالية –قراءة جديدة لنشاتها وغاياتها– منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط 1، 1998، ص 300.

[2] William Turner, History of Philosophy, Ginn & company, U.S.A, Boston and London, 1903, p 98.

[3] يوسف حامد الشين، الفلسفة المثالية، المرجع السابق، ص 327.

الأفكار المثالية جليًا من خلال محاورة "بارمينيدس" (Parmenides) الذي صرح فيها على لسان سقراط بوجود مثل عليا خالدة تمثل الموجودات، وأن هاته الأخيرة تحاكيها وتتشبه بها في كمالها على الرغم من أنها أدنى مرتبة، فهي لا تمثل سوى صور زائفة للحقيقة العقلية المثالية. ومن أجل معرفة المثل وتعقلها فلابد من أن يسلك الإنسان، سبيل الفيلسوف الحكيم[1]. وهذا السبيل مثلته الفكرة الديالكتيكية، فالروح كانت تملك كل المعارف اليقينية بما هي ماهيات خالصة في العقل حين كانت قابعة في عالم المثل، لكنها نسيت هاته الحقائق حين مُسخت ونزلت للعالم المادي في جدلها النازل، لأن "الجهل نسيان والمعرفة تذكر"[2]. وبالتالي فإن الحكماء إذا ما رغبوا في بلوغ الحكمة السامية فإن عليهم تعقل الحقائق الكاملة الموجودة في عالم المثل، وتذكرها من خلال الجدل الصاعد.

يتصور أفلاطون "الترنسندنتالي" بمعنى "المثالي" وقد اختلف تصوره للمثل بين مرحلة الشباب ومرحلة النضج؛ ففي مرحلة الشباب، كان تصوره مستوحى من أفكار أستاذه سقراط، ومتوجها نحو البحث في القضايا الأخلاقية والجمالية، وكان يعني بالمثال الشي في ذاته، أمّا في مرحلة النضج أو المرحلة الأكادمية، فقد كان تصوره متأثرًا بالأفكار الفيثاغورية، وكما جاء في محاوراته الأخيرة، فإنه يعتبر المثل أشكالاً معقولة؛ أي أنها الأعداد والحقائق الرياضية[3]، وأحيانًا تتعدى ذلك إلى الفكرة المطلقة أو الله. وقد جعل أفلاطون للمثل ميزتين أساسيتين؛ أولها أن المثل ترنسندنتالية ومنفصلة عن المحسوسات، ومفارقة لها، والميزة الثانية أن المثل تشمل كل الكائنات الطبيعية، حيث يذكر أفلاطون في "محاورة بارمينيدس" أن سقراط يرد على بارمينيدس قائلاً: «إن المثل في رأيي تكون نماذج ثابتة في الطبيعة، وما الأشياء الأخرى إلاّ شبهها ومماثلات

[1] يوسف حامد الشين، الفلسفة المثالية، المرجع السابق، ص 237.

[2] صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، المرجع السابق، ص 80.

[3] يوسف حامد الشين، الفلسفة المثالية، المرجع السابق، ص ص 237، 238.

لها[1]»؛ أي أن كل الكائنات الموجودة في الطبيعة تتشبه بمثل معقولة، هي بمثابة نماذج ثابتة لها. أمّا عن أصل المثل؛ فأحيانًا يذهب إلى أنها أزلية خالدة كما ورد في محاورة طيماوس (Timaus)، وأحيانا يرى أنها مخلوقة والله صانعها كما جاء في الجمهورية (La république) [2]. ويعتبر أفلاطون الله هو الخير المحض وسيد المثل المعقولة وأعلاها مرتبة[3]، فهو الترنسندنتالي المفارق لكل مادة.

يقدم أفلاطون تصورًا إيجابيًا عن الترنسندنس، بحيث يكون الترنسندنس تطلعًا نحو الحقيقة الكاملة والخير الأسمى بشكل ديالكتيكي، ويُعتبر الديالكتيك الأفلاطوني منهجًا يتعالى فيه الفكر عن الواقع المحسوس من أجل إدراك الحقائق العليا[4]، والتي لا يدركها إلاّ الفيلسوف المحب للحكمة، لأن الفيلسوف في محاولة للتشبه بالآلهة حين يعلي من شأن النفس الخالدة على الجسد الفاني، ويزهد بالدنيا تطلعًا للحياة الأبدية.

يتضمن الترنسندنس الأفلاطوني جانبًا ابستيمولوجيًا لارتباطه بنظرية المثل، غير أنه يحمل مفهومًا ثيولوجيًا مهمًا أيضًا، لأن الحقيقة الترنسندنتالية تتمثل في مثال الخير الأسمى، وهذا الخير المحض هو المطلق والمفارق للمادة، وعلى الرغم من أنه مثال إلا أنه أعلى من جميع المثل الأخرى لأنه هو مصدرها ومصدر الحقائق كلها، والإله الواحد[5]. وبالتالي فإن المثال الأفلاطوني؛ هو المعقول المفارق للمادة، أمّا الترنسندنتالي؛ هو مثال المثل، والمفارق المنزه عن كل تجسيد، والخير المحض الذي يقبع في العالم المعقول، ويمثل الحقيقة الكاملة والخير الأسمى والجمال المطلق، وهو يعبر عن الإله المعقول بما يتضمنه من مفهوم المفارقة المطلقة للعالم المادي.

---

[1] أفلاطون، المحاورات الكاملة –محاورة بارمينيدس– المجلد 2، تر: شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1994، ص ص 22،23.

[2] يوسف حامد الشين، الفلسفة المثالية، المرجع السابق، ص 328.

[3] صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، المرجع السابق، ص 84.

[4] المرجع نفسه، ص 86.

[5] المرجع نفسه، ص 86.

ثانيًا: ديكارت (Descartes: 1650–1596)

يعتبر الفكر الترنسندنتالي عند ديكارت بمثابة مخرج فلسفي من الصراع القائم بين المعتقدات الثيولوجية للسلطة الكنسية من جهة، وبين رهانات العلم الحديث وقوانينه الطبيعية من جهة أخرى، حيث برزت الفلسفة الديكارتية في القرن السابع عشر للتوفيق بين العقل الحر، والإيمان الذي لايشوبه شك، إذ تأثر ديكارت بالأفكار الكوبرنيكية للعلم الحديث –على نحو خاص– بأفكار كل من "كبلر" (Kepler: 1571-1630) و"غاليليو" (Galileo:1564-1642)، واهتم بالطبيعة، وبدور العقل الإنساني في فهم قوانينها دون الغاء تصوره الثيولوجي للترنسندنتالية الإلهية، ولكنه جعل هذا التصور خادمًا لمركزية الذات في المعرفة الإنسانية، من أجل تأسيس ميتافيزيقا جديدة للعلم.

يحمل مفهوم الترنسندنس الديكارتي خلفية ثيولوجية[1]، توازي مفهوم الترنسندنتالي مع مفهوم الإله، من حيث هو إله لا متناهي ولا يمكن فهم حقيقته أو صفاته، بسبب طبيعته الترنسندنتالية التي تتجاوز حدود العقل الإنساني، لكن يمكن الإيمان به وإثبات وجوده انطلاقًا من وجود الذات المتناهية، ولأجل هذا الإثبات، سار ديكارت في تأملاته وفقا لمنهجه الشكي، حيث شكك –منهجيًا– في صحة جميع المعارف السابقة بما فيها المعطيات الحسية إضافة للمدركات العقلية لافتراضه وجود شيطان ماكر يظلل العقل، كما شكك –جذريًا– في وجود الموجودات جميعًا[2]، وانطلاقًا من ذاتية الكوجيتو "أنا افكر إذن أنا موجود"، وجد ديكارت يقينه الأول الذي يتأسس عليه كل يقين آخر، فالإنسان يفكر، وبما أنه يفكر فلابد أن تكون ذاته المفكرة موجودة حتمًا. وبعد إثبات وجود الذات شرع ديكارت في إثبات وجود الله، إذ توجد فكرة الكمال الإلهي فطريًا في الذات الإنسانية، وبما أن هاته الفكرة كاملة وحقيقية فسوف تكون منافية للخداع الشيطاني وبمثابة الضامن

[1] الحسن سليماني، جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة، تبين للدراسات الفكرية والثقافية، العدد 25، صيف 2018، ص 12.

[2] المرجع نفسه، ص 13.

لصحة الحقائق العقلية[1]، التي تدرك الموجودات جميعا ببداهة ووضوح، ومنه أثبت ديكارت وجود العالم الخارجي.

توصل ديكارت إلى إثبات وجود الله من خلال إستدلالات إستنباطية تنطلق من مسلمة الأفكار الفطرية الترنسندنتالية حول الكمال الإلهي، حيث يقول في مؤلفه التأملات (Méditations métaphysiques 1641): «تبقى فكرتي عن الله، وأقصد بالله جوهرًا لامتناهيًا، خالدًا ثابتًا، قائمًا بذاته، واسع القدرة، وهذه الصفات قد بلغت من العلو قدرًا يجعل من المستحيل أن أكون قد اكتسبت من نفسي الفكرة التي لدي عنها[2]» إذ أن علو (أو ترنسندنس) هاته الفكرة صادرة عن العلو الالهي بلا شك، غير أن تناول ديكارت لموضوع الإله من حيث هو كيان ترنسندنتالي، يجعله ينتقل من الطرح المنهجي العقلاني الى طرح ثيولوجي يوقعه في ثلاث مفارَقات ثيولوجية؛ حيث تطرح المفارَقة الأولى الإله الترنسندنتالي بوصفه إلهًا يتجاوز حدود العقل ويستعصي على الفهم، لأن فكرته لا تدرك ببداهة وليست حاضرة بوضوح في العقل، والمفارَقة الثانية تطرح الإله الترنسندنتالي باعتباره الضامن لصحة الحقائق العقلية والغاء لفكرة الشيطان الماكر أو الإله المخادع، لأن الإله الترنسندنتالي يتعالى عن كل زيف، أمّا المفارَقة الثالثة فهي تبين أن الحقائق ذات طبيعة ماهوية تتحدد من خلال الإرادة الإلهية[3]، وهي إرادة مفارقة لإرادة الإنسان.

إن تصور ديكارت للترنسندنتالي هو تصور مرادف لمفهوم الإله، ومتوافق إلى حد بعيد مع تصور الثيولوجيا المسيحية لفكرة الترنسندنس الإلهي، والتي تتصور الإله بوصفه ذاتية خالصة أو فكر أو عقل مفارق للعالم، وعصي عن الإدراك العقلي، إلاّ أن هذا التوافق في المفهوم لم يكن توافقًا في الغاية، فحين وظف السكولائيون فكرة الترنسندس

[1] الحسن سليماني، جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة، المرجع السابق، ص 13.

[2] رونيه ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، تر: عثمان أمين، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 2009. ص 124، 123.

[3] الحسن سليماني، جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة، المرجع السابق، ص 13.

لتقوية سلطة الكنيسة وتأثيرها في النفوس بجعل الإله مصدرًا لجميع الموجودات وحقائقها، فإن ديكارت قد وظفها من أجل عزل تدخل الإله في العالم، وإبعاد التصورات الدينية عن مجال المعرفة الإنسانية، فإذا كان الإله مفارقًا للعالم الحسي، ومنزه عن القول والفعل، فإن المعرفة لا يمكن أن تصدر عنه إلاّ من خلال الذات الإنسانية والتي تمثل المصدر الوحيد المتاح لإصدار جميع الحقائق اليقينية، فبالفكر تعي الذات ذاتها وتعي العالم، أما دور الإله في المعرفة، فيقتصر في دور الضامن لصحة بداهات العقل الإنساني[1]، ووفقًا لهاته الترنسندنتالية أصبحت جميع الحقائق الأنطولوجية تنبع من الذاتية الخالصة، وأفكارها العقلية المطلقة، ومن هذا المنطلق صاغ ديكارت مثاليته الذاتية التي تجعل من الذات مصدرا لكل يقين، فالوجود لم يكن حقيقة مسلم بها إلاّ بوجود ذات تفكر به وتتعقله.

ثالثًا: كانط (kant :1804 -1724)

قدم كانط تصورًا حديثًا للترنسندنس، يتجاوز التصورات الثيولوجية للترنسندنس الإلهي، بحيث يكون الترنسندنتالي مفهومًا إنسانيًا بحتًا، ويتأصل هذا المفهوم من خلال فلسفته الترنسندنتالية –تحديدًا– في المجال الإبستيمولوجي والأخلاقي. وتعتبر هاته الفلسفة الترنسندنتالية؛ مثالية واقعية لأنها تؤمن بإنتاج المعرفة من المزاوجة بين العوامل الذاتية والموضوعية، كما تعتبر أيضا مثالية نقدية لأن اغلب مؤلفات هذا الفيلسوف تحمل فكرة النقد اسمًا أو مضمونًا، ومن هاته المولفات نجد" نقد العقل المحض" (Critique 1781 de la raison pure)، و"نقد العقل العملي" (Critique de la raison pratique 1788)، و"نقد ملكة الحكم" (Critique du jugement 1790).

انطلقت الترنسندنتالية الكانطية من البحث في إشكالية المعرفة، فطرحت ثلاث قضايا رئيسية؛ تخص إمكانية المعرفة، وكيفية حصولها، وحدودها[2]. ومن أجل البحث

[1] الحسن سليماني، جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة، المرجع السابق، ص12.

[2] William Turner, History of Philosophy, Ibid, p 530.

في هاته القضايا تطرق كانط لدراسة أولية حول العقل الإنساني لكونه الأداة الأساسية لاكتساب المعرفة[1]، ليخوض ثورته الكوبرنيكية التي تقلب كل المفاهيم، وتجعل من العقل موضوعًا للدراسة بعد أن كان هو الدارس لكل الموضوعات، وذلك من خلال إخضاعه للنقد، النقد ليس بمعنى الهدم، بل هو النقد بمعنى الفحص؛ أي فحص ملكات العقل وإمكاناته، وحدودها. ويبين كانط في مؤلفه نقد "العقل المحض" (1781)، دوغمائية المذهبين العقلي والتجريبي، ليحدد الشروط الترنسندنتالية لقيام المعرفة الإمبريقية.

تقوم نظرية المعرفة الكانطية على نظرية الحساسية، وهي نظرية تربط بين الذات والموضوع، وبين العقل والتجربة الحسية أو الإدراك الحسي. ويسمي كانط القدرة على الإدراك الحسي بـ "الحدس"، فالحدس يعبر عن ارتباط الحواس بموضوع ما، ولذلك «تبدأ كل معارفنا مع التجربة، ولا ريب في ذلك البتة، لأن قدرتنا المعرفية لن تستيقظ إلى العمل إن لم يتم ذلك من خلال موضوعات تصدم حواسنا[2]»، لأن في الإدراك الحسي نركز على الشيء المحسوس لكن «على الرغم من أن كل معارفنا تبدأ مع التجربة، فإنها مع ذلك، لا تنبثق بأسرها من التجربة[3]» فهناك عوامل أخرى تتدخل في بناء المعرفة وهاته العوامل هي العوامل العقلية، أو بمعنى آخر المبادئ الذهنية التي تمثل الشروط القبلية للحساسية. والمقصود بالقبلية هو أنها سابقة عن التجربة وشرط لها، وكيانات قبلية للتجربة الحسية ويضم هاته الكيانات اطارين قبليين هما؛ الزمان والمكان[4]، فكل تجربة تقع بالضرورة في زمان ومكان معين، كما تضم المقولات العقلية الإثنا عشر. وبالتالي فإن المبادئ العقلية هي مبادئ قبلية تؤسس للمعرفة البعدية المعطاة من قبل الحواس، وهذا الانعطاء يكون من خلال الحدس الحسي[5]، بواسطة شروط الحساسية السابقة. وكما

---

[1] يوسف حامد الشين، الفلسفة المثالية، المرجع السابق، ص 32.

[2] ايمانويل كانط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، بيروت، (د.ت)، ص 45.

[3] المرجع نفسه، ص 45.

[4] William Turner, History of Philosophy, Ibid, p 531.

[5] Ibid, p p 532,533.

تنقسم المعرفة إلى قبلية وأخرى بعدية، فإن الأحكام المعرفية أيضا تنقسم إلى قسمين؛ أحكام تحليلية مثل؛ قضايا الرياضيات، وأحكام تركيبية مثل؛ قضايا العلوم الطبيعية، ويتأسس العلم الواقعي –في نظر كانط– على الأحكام الأولية والتركيبية معا[1].

تصور كانط أن الأشياء في ظاهرها ليست كما هي في حقيقتها، ومعرفتها ممكنة فقط من حيث هي "فينومان" وظاهرة في الزمان والمكان، بشكل إمبريقي، بينما تكون المعرفة غير ممكنة حين نقصد الشيء في ذاته أو "النومان" الذي يتجاوز حدود التجربة، وفي هذا الصدد يقول: «إن كل حدسنا ليس سوى تصور للظاهرة، وأن الأشياء التي نحدسها ليست في ذاتها على نحو ما نحدسها ولا علاقاتها قائمة على نحو ما تظهر لنا، وإنا إذا نسخنا ذاتنا أو مجرد القوام الذاتي للحواس بعامة، فسيختفي كل قوام الأشياء وكل علاقاتها في المكان والزمان، بل المكان والزمان عينهما، بما هي ظاهرات لا يمكن أن توجد في ذاتها، بل فينا وحسب، أمّا ما قد تكون عليه الموضوعات في ذاتها وبمعزل عن قدرة تلقي حساسيتنا فهو ما سيظل مجهولاً تمامًا بالنسبة إلينا[2]». وبالتالي فإن معرفة الأشياء ممكنة حين تعطى بوصفها ظواهر حسية في حدود التجربة وشروطها، ويستحيل معرفة الأشياء في ذاتها، لأن حقائق الأشياء تتجاوز حدود التجربة.

يربط كانط بين الفلسفة الترنسندنتالية وتحليل المبادئ القبلية، ويعرفها بأنها «سستام كل مبادئ العقل المحض، ولا يسمي هذا النقد نفسه فلسفة ترنسندنتالية لسبب واحد، هو أنه كي يكون سستامًا كاملاً يجب أن يتضمن تحليلاً مفصلاً لكل معرفة البشرية القبلية[3]»، حيث يجمع كانط بين معنى "المحض" (Pur)، و"القبلي" (A priori)، و"الترنسندنتالي" (Transcendantal)، فيرى أن التصورات المحضة هي التصورات

[1] صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، المرجع السابق، ص 104.

[2] ايمانويل كانط، نقد العقل المحض، المرجع السابق، ص 69.

[3] المرجع نفسه، ص 55.

الترنسندنتالية التي لا نعثر فيها على أي شيء ينتمي إلى الإحساس، ويطلق مصطلح "الترنسندنتالي" على التصورات المحضة أو مبادئ الذهن القبلية التي تكون شرطًا لكل تجربة ممكنة[1]. ويفصل بين ماهو "تجريبي" (Empirique) وماهو "ترنسندنتالي" (Transcendantal)، فالترنسندنتالي محض، وقبلي؛ أي سابق عن كل تجربة، وذلك لقوله في المبادئ الترنسندنتالية المحضة: «سنفهم إذن، لاحقا بمعارف قبلية، لا تلك المستقلة عن هذه التجربة أو تلك، بل المستقلة عن كل تجربة[2]». كما يميّز بين ماهو ترنسندنتالي وماهو مفارق أو بتعبير كانط "ترنسندنت"، ويظهر هذا التمييز في مؤلفه "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علمًا" (1782 introduction à toute métaphysique future qui peut devenir une science) من خلال تمييزه بين التصورات الترنسندنتالية (تصورات الذهن المحضة)، وبين معارف العقل المفارقة، فالأولى؛ هي تلك التي «يكون استعمالها محايثا[*] صرفًا، بقدر ما تكون هاته التجربة معطاة لنا[3]»، بينما الثانية؛ «تتجاوز كل تجربة معطاة لنا وتصبح مفارقة لها أو عالية[4]». وعليه فإن "الترنسندنتالي" يعني الشروط القبلية التي تمثل أساسًا أوليًا لكل تجربة ممكنة وشرطًا ضروريًا لها، في حين أن الترنسندنت (المفارق) (transcendant) هو ما يكون خارجًا تمامًا عن نطاق التجربة، وهو ما يسميه كانط "النومينا " أو النومان (Noumen) بمعنى الشيء في ذاته، والذي لا يمكن معرفته. وإضافة لذلك فقد أشار كانط للإستعمال المحايث للشروط الترنسندنتالية، لأنها شروط قبلية في الذهن من جهة، ولأن استعمالها مرتبط بمجال التجربة ولا يخرج عنها من

---

[1] ايمانويل كانط، نقد العقل المحض، المرجع السابق، ص77.

[2] المرجع نفسه، ص 46.

[*] تدل المحايثة على الكمون، العلة المحايثة هي العلة الموجودة في باطن الذات الفاعلة، وتقابلها المفارقة، [وهبة مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 1998، ص 580.]

[3] ايمانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما، تر: نازلي اسماعيل حسين ومحمد فتحي الشنيطي، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 1991، ص 110.

[4] المرجع نفسه، ص 110.

جهة أخرى [1]، بحيث يكون "الترنسندنتالي" مرادفًا لـ "المحايث" (immanent) ومقابلاً لـ "المفارق".

بعد تأسيس الترنسندنتالية النظرية، شرع كانط في تأسيس الترنسندنتالية العملية في "مؤلف "نقد العقل العملي" (1788)، ومن المعروف جدًا أن كانط قد إعتاد القول بأن الأشياء التي تستحق الإعجاب؛ هي السماء المرصعة بالنجوم فوقنا، والقانون الأخلاقي فينا[2]، فكيف يتأسس هذا القانون الأخلاقي في طابعه الترنسندنتالي؟

يؤسس كانط للأخلاق الترنسندنتالية من خلال الحرية والمعقولية، لأن القانون الأخلاقي هو قانون كوني، كامن في العقل ويقتضي الضرورة والإلزام، وهو قانون لا يرجى منه لذة حسية أو سعادة ما، لأنه غير مشروط بأي منفعة، فالعقل الحر هو من يحدد الواجب من خلال الإرادة الخيرة، وكما تتأسس الأخلاق العملية على أوامر العقل، فإن القضايا الإيمانية تتأسس على المبادئ الأخلاقية، لأن الإيمان بوجود الله ضروري لضبط السلوك عمليًا، فقضايا الحرية، ووجود الله، وخلود النفس[3]، هي المسلمات الضرورية للعقل العملي على الرغم من أنها قضايا خارج نطاق البرهنة. وتعتبر الحرية الأخلاقية حرية ترنسندنتالية باعتبارها إرادة تتعالى على الضروف والشروط الواقعية، كما أن القانون الأخلاقي هو قانون ترنسندنتالي، لكونه مبادئ ومسلمات قبلية في العقل.

يأخذ "الترنسندنتالي" مفهوم المفارقة في الفلسفات القديمة –خاصة– ضمن الفلسفة الأفلاطونية، ثم الثيولوجيا الوسيطية، وحتى الفلسفة الديكارتية الحديثة التي تجعل من الترنسندنتالي كيانًا مفارقًا للعالم، غير أنه يكتسب مع كانط معنى إبستيمولوجي وإيتيقي محايث للفكر، لتتطور هاته المحايثة –بشكل ملفت– مع التحوّلات الترنسندنتالية لفينومينولوجيا هوسّرل.

---

[1] وهبة مراد، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص 183.

[2] William Turner, History of Philosophy, Ibid, p 541.

[3] Ibid, p p 542, 543.

المبحث الثاني: هوسّرل والتحوّل نحو مفهوم الترنسندنتالية

إن التحوّل الترنسندنتالي لهوسّرل هو تحوّل الفينومينولوجيا الناشئة الى فينومينولوجيا ترنسندنتالية ضمن التحوّلات التي عرفتها حياته الفكرية، حيث بدأ هوسّرل مساره الفكري باعتناق النزعة النفسية المرتبطة بدراساته الرياضية، ثم انتقد هاته النزعة النفسية التجريبية بعد دراسته التالية للمنطق، ليبني أُسُسًا جديدة لعلم النفس تكون بداية تكوين الفينومينولوجيا، ثم أكمل بعد ذلك صورتها النهائية من حيث الهدف والمنهج، ليؤسس فينومينولوجيا ترنسندنتالية توحد جميع المعارف وتكون علمًا صارمًا.

يستأنف هوسّرل مفهوم "الترنسندنتالي" في الفينومينولوجيا من خلال تأسيسه للفينومينولوجيا الترنسندنتالية بين سنتي (1913) و(1929)؛ أي تاريخ نشر كتاب "الأفكار" و"التأملات"، وما يتوسطهما من مؤلفات مثل المنطق (1929) ودروس الفلسفة[1] (1923-1924)[(1)]. وقد تأسست هاته الترنسندنتالية بوحي من أفكار كل من "أفلاطون" و"كانط" و"هيوم"، وخصوصًا الأفكار الديكارتية، حيث كان مؤلف "أفكار" يحمل فكرة عزل الوعي عن الطبيعة، وفي هذا الوعي الذاتي تتضح ذاتية ديكارت التي ستظهر بصورتها الترنسندنتالية مع مؤلف "التأملات"، في شكل منهج، ليقوم هوسّرل –بعدها– بالتأصيل لمنطق ترنسندنتالي في كتاب "المنطق"، باخضاعه مفهوم الماهية الى تعيين ذاتي من خلال فهم منطقي دقيق ومنظم[(2)]. وبالتالي يعتبر المؤلف الأول "أفكار" تمهيدًا لترنسندنتالية الفينومينولوجيا، إذ يعتبره كل من "ريكور" و"إنغاردن" انتقالاً للفينومينولوجيا من الواقعية الناشئة مع مباحث منطقية (1900-1901) إلى المثالية الترنسندنتالية مع "أفكار" (1913). أمّا مؤلفي "المنطق" و"التأملات"، فتمثل اختمار هاته المرحلة الترنسندنتالية، ومنها يتم تحليل الرد الترنسندنتالي والتقوّم الترنسندنتالي للفينومينولوجيا الترنسندنتالية

[1] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص 113.

[2] المرجع نفسه، ص ص 114، 115.

التأويلية. وقد حدثت هاته النقلة تزامنًا مع عُدُول هوسّرل عن البسيكولوجيا الوصفية[1] التي رافقت الفينومينولوجيا الناشئة، ثم تحولت بعد هذا العُدُول إلى الفينومينولوجيا المقوّمة أو الترنسندنتالية.

تتضمن التمهيدات الترنسندنتالية لـ "مؤلف أفكار" فكرة الذاتية الديكارتية بالإضافة إلى تحليلات فلسفية ذات طابع مثالي صاغها هوسّرل في الفقرات (§30.31.32) وهي تحليلات ذات مسار أفلاطوني، وتقترب بصورة كبيرة من أُمثولة الكتاب السابع من "محاورة الجمهورية" أو "اسطورة الكهف"، حيث تبين هاته الأسطورة ضعف الموقف الطبيعي، المقيد بظلامية الكهف المادي، كما تبين أن التفلسف الحق هو التحرر من قيود كهف الأفكار التقليدية، وعلى نفس الشاكلة يستهدف الموقف الإيبوخي العودة إلى الذات وتخليصها من أفكار الموقف الطبيعي الساذج، بهدف وصف الماهية بموضوعية وبشكل ترنسندنتالي مجرد من جميع الأحكام المسبقة[2]. وفي هاته الرؤية الترنسندنتالية للفينومينولوجيا، نلمس التوجه الماهوي للمثالية الأفلاطونية، التي تجعل من الفكرة أو الماهية (Edos)، هي مبدأ الوجود وبالتالي تثبت تبعية العالم الواقعي للأفكار المجردة من الأحكام الطبيعية[3]، وكذلك الفينومينولوجيا الترنسندنتالية تستخلص الواقعي من ترابطه الماهوي بالوعي، لأن رؤية الماهيات هي رؤية للمثل بشكل ترنسندنتالي، ولذلك فإن «العمى عن إدراك المثل هو نوع من العمى في النفس ولعل من يعاني منه قد أصبح بفعل الأحكام المسبقة عاجزًا عن أن ينقل ماله في مجالات حدسه إلى مجال الحكم[4]» لأن هاته الرؤية الترنسندنتالية هي المؤسسة للأحكام الخالصة. وإضافة إلى ذلك نجد

---

[1] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص ص 118. 120.

[2] المرجع نفسه، ص 60.

[3] المرجع نفسه، ص 60.

[4] هوسّرل ادموند، أفكار ممهدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهراتية، تر: أبو يعرب المرزوقي، جداول، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص67.

أفلاطون قد وضع التأسيس للفلسفة العقلية الكلية من خلال منطق المنهج الديالكتيكي ليكون تمهيدًا لانطلاق فينومينولوجيا ترنسندنتالية بمعنى العلم الكلي الصارم[1].

وعلى الرغم من تعايش المثالية الأفلاطونية في الفكر الفينومينولوجي، إلاّ أن هوسّرل ينتقد الأساس الميتافيزيقي لنظرية المثل، وخاصة في بعدها الواقعي، إذ لا يوجد ما يثبت أن للمثل وجودًا واقعيًا وأن «ما يتكرر طابعه الصادم دائما هو كوننا نضع مثلا أو ماهيات كحقائق ذات نزعة أفلاطونية نضعها كموضوعات مثلها مثل غيرها من الموضوعات وننسب إليها الوجود الفعلي» لأن هناك أفكارًا خيالية لا يوجد لها أي مقابل واقعي مثل أفكارنا التي ننسجها عن الكائنات الأسطورية. كما أن الفينومينولوجيا لا توضح علاقة المشاركة بين المثل والوجود بشكل ميتافيزيقي أو من خلال ميتودولوجيا أسطورة الكهف، بل توضحها بشكل إبستيمولوجي[2]، لأن الإبستيمولوجيا الترنسندنتالية تؤكد على رؤية منهجية للماهيات الخالصة. وبالتالي فإن التضايف[*] بين الموضوع والذات الترنسندنتالية في الفينومينولوجيا والتعالق بينهما لا يفهم من خلال نظرية المشاركة الأفلاطونية وميتادولوجيا العلاقة بين المثال والموجود، بل هي نظرية للتقوّم الترنسندنتالي الذي يحمل طابعًا إبستيمولوجيًا ومنهجيًا يُمكّن الذات من حدس الماهيات. ولذلك ظلت المثالية الأفلاطونية فلسفة ستاتيكية لا تحقق مطلب الفلسفة العلمية الترنسندنتالية، مما جعل هوسّرل يلجأ إلى استئناف المشروع الكانطي، والخوض في المسائل الترنسندنتالية والمنهجية للمعرفة واستكمال المشاريع الفكرية لفلاسفة آخرين أمثال؛ أفلاطون وديكارت وهيوم من خلال الفينومينولوجيا الترنسندنتالية.

---

[1] محمد محسن الزراعي، مدخل الى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص 57.

[2] المرجع نفسه، ص 68.

[*] يتحدد معنى التضايف –فينومينولوجيًا– بمفهوم الحضور الماهوي للموضوع المُدرَك ضمن الحقل الشعوري. وهو ما يفيد تعالق وارتباط الموضوع بالذات المدركة له.

اقتبس هوسّرل من الفلسفة الكانطية مصطلح "الترنسندنتالي" ليطلق على مشروعه الفينومينولوجي اسم "الفينومينولوجيا الترنسندنتالية" كما هو وارد في مؤلفاته المتأخرة، وبالتحديد ضمن؛ "المنطق الترنسندنتالي" (1929) و"أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية" (1936)، أمّا توجهه الترنسندنتالي فقد ظهر في بداية مسيرته الفلسفية من خلال ارتباطه بـ "كانط" ثم "فشته" (Fichte: 1762-1814) والكانطيين الجدد من مدرسة "ماربورغ" ومدرسة "باد" من أمثال "ناتورب" (Natorp: 1854-1924) و"ريكرت"[(*)] (Rickert: 1863-1936)، فمنذ مؤلف فكرة الفينومينولوجيا (1907)، ربط هوسّرل اشكاليته الفلسفية باشكالية كانط، لتتحول الفينومينولوجيا –ترنسندنتاليًا– إلى فينومينولوجيا راديكالية لنقد العقل وشروط المعرفة التي حددها كانط في مؤلفه "نقد العقل المحض" (1781) ضمن منهجه النقدي في الشروط الترنسندنتالية[(1)]. ولعل الفينومينولوجيا بمعناها العلمي الصارم كانت تحتاج إلى استضاءة عميقة بفلسفة كانط العلمية التي طمحت هي الأخرى لعلمية الميتافيزيقا من خلال نقد جذري لكل توجه دوغمائي. وبالتالي طرح هوسّرل إشكال الفينومينولوجيا الترنسندنتالية من ناحية إبستيمية منهجية. لأن كانط قد قدّم من خلال "نقد العقل المحض" منهجًا نقديًا راديكاليًا لا يستمد تأسيسه المعرفي من المواقف الطبيعية والموضوعية، بل هو نقد مثالي ترنسندنتالي لشروط المعرفة التي تنبع من ذات مفكرة تتأمل العالم[(2)]. وصار هذا النقد ثورة كوبرنيكية فاحصة للعقل الإنساني، تجعله منظمًا ومؤسسًا للمعارف الموضوعية، بعد أن كانت النظرة العلمية تجعل العقل يخضع لمنظومة هاته الموضوعات.

---

[*] هانرش ريكرت (Heinrich Rickert; 1863-1936)؛ فيلسوف ألماني وممثل رئيسي لمدرسة باد الكانطية الجديدة، تتمحور نظريته النقدية في فلسفته الاخلاقية لافي نظرية المعرفة فالفلسفة ليست نظرية لمعايير الحقيقة، بل هي نظرية القيم بصفة عامة، من أهم مؤلفاته: موضوع المعرفة (1892)، علم الثقافة وعلم الطبيعة (1899)، منطق المحمولات والأنطولوجيا (1933). [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص 338.]

[1] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص 79.

[2] المرجع نفسه، ص 81.

لم تتأسس الترنسندنتالية الفينومينولوجية بالمعنى الثيولوجي الذي صاغه ديكارت للإله المفارق للعالم، بل أضحت هاته الترنسندنتالية –بتوجيهات كانطية– نفسها محايثة للطبيعة ومُشرعة لقوانينها العلمية الصارمة حين استعاد الكائن العاقل قدرته الذاتية في تعقل العالم من خلال الحدوس الإنسانية. غير أن ترنسندنتالية الفينومينولوجيا تتجاوز الترنسندنتالية الكانطية، لاعتبارها ترنسندنتالية سيكولوجية[1] –من منظور هوسّرل– لأنها تبني المعرفة على مبادئ ذاتية سابقة عن التجربة، كما تتجاوز الطرح الكانطي لنظرية الشيء في ذاته (النومينا)، ومفهوم الإدراك والوعي الترنسندنتالي[2]، وخاصة نظرية الحدس، لإن كانط قد أسس نظرية الوعي الترنسندنتالي من خلال فصل الشيء عن ظاهره، بحيث يحصر المعرفة الترنسندنتالية في إدراك الظواهر، أمّا الشيء في ذاته يظل خارج حدود التجربة، وبالتالي يبقى مبهمًا. بينما يتجه هوسّرل إلى معرفة الأشياء ذاتها، دون فصل حقيقة الشيء عن ظاهره، لأن الفينومينولوجيا تتجه للأشياء ذاتها بوصفها ماهيات خالصة يحدسها الأنا الترنسندنتالي، ولذلك ينفي هوسّرل نظرية الشيء في ذاته باعتبارها اللامعنى بالنسبة للفينومينولوجيا، ويعتبرها نظرة محدودة للدلالة الترنسندنتالية، لأن الترنسندنس المطلق للنومينا يجعل المعرفة الترنسندنتالية محدودة بالشروط الحسية وقيود المعرفة الإمبريقية. وبالإضافة الى ذلك، فإن الحدس الكانطي ذو طابع حسي، أمّا الحدس –من منظور هوسّرل– فهو حدس ترنسندنتالي إيدوسي للبداهة العقلية، أو رؤية عقلية مباشرة للماهيات، باعتبارها حضورًا للأشياء ذاتها في الوعي الخالص.

وفي مفهوم الترانسندنتالية؛ يعتبر كانط الترنسندنتالي شرطًا قبليًا لقيام المعرفة، بينما يجعل هوسّرل من الترنسندنتالي منهجًا متكاملاً للمعرفة، لأن الفينومينولوجيا لا تتأسس على مجرد قضية نفسية أو منطقية[3]، بل تتأسس على أنطولوجيا ذات فعلية، ذات طبيعة

[1] Jean-Francois Lyotard, La phénoménologie, Presses Universitaires de France, Editions Delta, paris, 1996, p p 16.17.

[2] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص 83.

[3] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص 88.

حدسية، مكملة للكوجيتو "الأنا افكر"، من خلال مسألة التفكير البديهي في الأشياء المفكر بها وهي بمثابة استكمال للكوجيتو الديكارتي.

يعتبر مؤلف "التأملات" (1929) بمثابة إنعطافة ترنسندنتالية وعودة راديكالية للمقصد الديكارتي الذي عجزت ترنسندنتالية كانط عن فهمه ذاتيًا باعتبارها ترنسندنتالية ذات توجه إمبيريقي، حيث يقول هوسّرل في مقدمة مؤلفه "تأملات ديكارتية" بأن «الفينومينولوجيا الناشئة قد تحولت عن طريق دراسة "التأملات" التي كتبها "ديكارت" إلى نموذج جديد من نماذج الفلسفة المتعالية[1].» لأن التأملات هي عودة للذاتية الخالصة من خلال الكوجيتو، وإكتشاف للمنهج الفينومينولوجي على ضوء منهج الشك الديكارتي.

يؤسس هوسّرل الذاتية الترنسندنتالية انطلاقًا من الذاتية الديكارتية (Cogito) التي تؤسس لليقين المعرفي، حيث طورت الفينومينولوجيا فكرة الذاتية إلى صورتها الترنسندنتالية من خلال فكرة قصدية الوعي، ليصبح الكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر" عند هوسّرل "أنا أفكر بشيء ما" (cogitatum)، لأن الفكر لابد أن يرتبط بالشيء المفكر فيه من حيث هو وعي قصدي بموضوعاته، وتلك الموضوعات تصير بفعل الرد الماهوي والرد الفينومينولوجي ماهيات ترنسندنتالية يمكن حدسها من خلال الذاتية الترنسندنتالية.

يكشف هوسّرل –من خلال المنهج الديكارتي– عن بداهة المعرفة النابعة من اليقين الذاتي[2]، ويحتفظ بهاته الصورة المنهجية ليطورها في صورة المنهج الإبوخي والتعليق، الذي ينتقل فيه الفكر من الموقف الطبيعي إلى الموقف الفلسفي الترنسندنتالي. أو –إن صح القول– من الأحكام الطبيعية والموضوعية (Jugements naturels objectifs) الساذجة (Naïve) إلى الأحكام الفينومينولوجية الترنسندنتالية (Jugements phénoménologiques

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية –مدخل ألى الفينومينولوجيا– تر: تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت)، ص ص 41، 42.

[2] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص ص 93، 94.

(transcendantaux. لكن على الرغم من التأسيس الديكارتي لمنهج للذاتية الخالصة إلاّ أن هاته الذاتية –على حد رأي هوسّرل– قد انحرفت إلى حقل لا ترنسندنتالي، لأن المقصد الديكارتي انقلب إلى ثيولوجيا بسبب فكرة الضمان الإلهي، كما أن ذاتيته الخالصة قد ابتعدت عن ترنسندنتالية الأنطولوجيا الإبستيمية، لأن "الأنا أفكر" الديكارتي ظل سجين النزعة النفسية المنغلقة[1]، بينما تطمح الفينومينولوجيا الترنسندنتالية إلى نقل الأنا النفسي إلى حقل الأنا الترنسندنتالي من خلال التعليق الفينومينولوجي من أجل حدس الماهيات باعتبارها موضوعات للوعي الخالص، الأمر الذي جعل هوسّرل يسعى لتجذير المقصد الترنسندنتالي الديكارتي من خلال الموضوعية الذاتية (Objectivité subjective) لهيوم.

تستند ترنسندنتالية الفينومينولوجيا على أسس عميقة من فلسفة هيوم، لأن هوسّرل نفسه قد وضع فصلاً بين الإنتماء الإبريقي لهيوم الذي استمده من المدرسة التجريبية، وبين مقصده الترنسندنتالي الذي ظهر من خلال كتابه "مقال عن الطبيعة البشرية" (Un traité de la nature humaine 1739)[2]، حيث يقوم هيوم بتجذير الكوجيتو أنا أفكر وجعله أساسًا لليقين الذاتي من أجل إدراك العالم دون اتخاذ علل ترنسندنتالية مفارقة أو ضمان إلهي كالذي اتخذه ديكارت من قبل، لأن العالم يتحدد عن طريق الإدراك الداخلي للإنسان وما يحمله من انطباعات وخيالات وأفكار.

تجدد الفينومينولوجيا مقاصد هيوم الترنسندنتالية في فكرة تقديره الذاتي للعالم في فكر راديكالي يتجاوز الموضوعية الدوغمائية التي تجعل الحقائق موضوعية خارجة عن الذات، وبما أن الأشياء هي نتاج انطباعات وإدراكات ذاتية للظواهر بوصفها انعطاءات محايثة للوعي الداخلي، فإن حقيقة العالم هو نتاج فعل تقوّم ذاتي ترنسندنتالي للعالم، وتحيل "نظرية الأفكار" لهيوم إلى ارتباط الموضوع بالفكر، مما يوحي بالتعالق القصدي

[1] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص ص 98، 99.

[2] المرجع نفسه، ص ص 101،100.

لهوسّرل، غير أن هوسّرل يرفض طبعنة الفكرة أو الوعي الذي قال به هيوم[1] الذي جعل الأفكار نتاج انطباعات حسية بوحي استقرائي إمبريقي، لأن الوعي الترنسندنتالي في الفينومينولوجيا هو رؤية عقلية للماهيات. وإضافة لذلك فان هوسّرل يتجاوز ريبية هيوم التي تطال ضروب المعرفة العقلية، لأن الهدف من تكوين فينومينولوجيا ترنسندنتالية هو تحصيل علم يقيني صارم من أجل بناء نظرية ترنسندنتالية للتقوّم (Constitutions) بما هو وعي ذاتي ترانسندنتالي بالعالم الخارجي.

يطرح هوسّرل مفهوم الترنسندنتالي –فينومينولوجيًا– ضمن مفاهيم الفينومينولوجيا الترنسندنتالية باعتبارها فلسفة منهجية لأنطولوجيا إبستيمية تتأسس على فكرة الوعي الترنسندنتالي بالعالم. ويعرفها في مؤلفه "أفكار"، بأنها «علم الماهيات[2]»؛ أي العلم الذي يقوم بتحليل العمليات الترنسندنتالية في الشعور الخالص، ويدل الترنسندنتالي في الفينومينولوجيا على المنهج الذي تقوم فيه الذات بالرد الترنسندنتالي للموضوعات الخارجية، من أجل تحليلها ماهويًا وبشكل مجرد من جميع الأحكام الوجودية والتاريخية المسبقة، إذ يتعالى الأنا الترنسندنتالي على العالم الحسي ليضفي عليه معانيه فيكون بذلك أساسًا لليقين المعرفي.

يتبلور مفهوم الترنسندنس الفينومينولوجي في التأمل الأول لكتاب "التأملات"، إذ يتناوله هوسّرل من حيث هو حالة من الإرتقاء الذاتي الذي تنتقل فيه الذات من الموقف الطبيعي إلى الموقف الفينومينولوجي، ومن الأنا النفسي إلى الأنا الترنسندنتالي، من خلال منهج التعليق[3] والرد الماهوي والترنسندنتالي. ويعني الرد الترنسندنتالي –بالمعنى الدقيق– حدس الأنا الترنسندنتالي للظاهرات الواقعية، من خلال تجريدها من واقعيتها لتصير ماهيات خالصة في الشعور، وبالتالي فإن الرد الفينومينولوجي هو ما يعطي الموضوع

[1] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص ص 104، 105.

[2] هوسّرل إدموند، أفكار ممهدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهراتية، المصدر السابق، ص ص 22، 23.

[3] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 90.

معناه لكن ليس في وجوده الفعلي، ولا في وجوده الإيبوخي، بل في واقعه المحايث للشعور[1]، وضمن النطاق الشعوري الماهوي الخالص.

تتأسس الدلالة الترنسندنتالية في الفينومينولوجيا على مفهوم المحايثة (immanent)، لأن الوعي الترنسندنتالي هو وعي ذاتي محايث للشعور وليس مفارقًا له أو خارجًا عنه. ويعبر هوسّرل عن ذلك بوضوح في نص مؤلفه التأملات، إذ يقول: «ليس الشي أو الحقيقة في حال البداهة (مقصودًا) فقط على نحو بعيد وغير مطابق، بل إنه حاضر لنا بذاته، فالشخص الذي يحكم يشعر به إذن شعورًا محايثًا»[2]. وبالتالي فإن الرد الترنسندنتالي يأخذ معناه الباطني من الدلالة الذاتية للكوجيتو بوصفه وعيًا ذاتيًا محايثًا للشعور الخالص، ومن خلال الكوجيتاتوم القصدي للموضوع فإن الفينومينولوجيا الترنسندنتالية تدرس الظاهرة دراسة ماهوية محايثة للوعي. حيث ينفصل الترنسندنتالي (transcendantal) عن مفهوم المفارق (transcendant) بشكل تام، لأن المفارق هو كل ماهو خارج عن الكوجيتو بما في ذالك المعارف العلمية وجميع الأحكام المسبقة،[3] وبمعنى أدق تطلق صفة "الترنسندنتالي" على الأنا الترنسندنتالي المحايث لتجربة الشعور الباطني، ويكون مستقلاً عن العالم الخارجي من حيث هو عالم موجودات مفارقة للوعي، ويمكن القول أن هاته الترنسندنتالية هي فلسفة ومنهج إبستيمولوجي للوعي الترنسندنتالي في عملية إدراكه للموضوعات المحايثة للوعي القصدي. كما تعتبر نظرية هيرمونيطيقية (Hermonétique) للتقوّم الترنسندنتالي للعالم. وذلك في إطار مشروع الفينومينولوجيا الترنسندنتالية، فكيف يمكن التماس الأبعاد الترانسندنتالية لهاذا المشروع؟

---

[1] مجموعة من الأكاديميين العرب، موسوعة الأبحاث الفلسفية، المرجع السابق، ص 150.

[2] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 60.

[3] نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسّرل –نظرية الرد الفينومينولوجي– ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط) 2005، ص ص 89.88.

الفصل الثالث: ترنسندنتالية الفينومينولوجيا والفينومينولوجيا الترنسندنتالية.

المبحث الأول: التأسيس الترنسندنتالي للمنهج.

المبحث الثاني: النظرية الترنسندنتالية لعالم المعيش.

توطئة

إن الشكل الأساسي لترنسندنتالية الفينومينولوجيا (La Transcendance de la Phénoménologie) هو الفينومينولوجيا الترنسندنتالية (La Phénoménologie transcendantale)، من حيث أنها فلسفة نقدية للكيفيات القبلية التي يتأسس عليها المعنى، وفلسفة للذاتية الترنسندنتالية، فمنذ اقتران الفينومينولوجيا الناشئة بذاتية الكوجيتو الديكارتي وتطويره إلى كوجيتو ترنسندنتالي على ضوء الفلسفة الكانطية وما بعدها، فإن الفينومينولوجيا باتت نظرية إبستيمولوجية لتأسيس المعنى الخالص انطلاقًا من إنجازات الأنا الترنسندنتالي لتصير ترنسندنتالية الفينومينولوجية؛ تجربة شعورية محايثة للوعي. ولما كان التقوّم تأسيسًا للمعنى الذاتي والبينذاتي للعالم، فقد استحضر هوسّرل الموضوعية الذاتية لهيوم بشكل أكثر راديكالية للمزاوجة بين المعرفة الذاتية والمعرفة الامبريقية، وذلك بالتخلي عن جميع الأحكام المسبقة من أجل الوصول بالفينومينولوجيا الترنسندنتالية لمعنى العلم الكلي، والمنهج الصارم، لتتحول –فيما بعد– إلى نظرية ترانسندنتالية هيرمونيطيقية للعالم. فكيف تتجلى ترنسندنتالية الفينومينولوجيا باعتبارها منهجًا ونظرية ترانسندنتالية لعالم المعيش؟

المبحث الأول: التأسيس الترانسندنتالي للمنهج

لم يحدث التأسيس الترانسندنتالي للمنهج الفينومينولوجي سوى مع التحولات المثالية للفينومينولوجيا الترانسندنتالية، حيث شرع هوسّرل –بداية– في تأسيس المنهج الفينومينولوجي باعتباره منهجًا تحليليًا، وصفيًا للوعي القصدي، تزامنًا مع نقده للنزعة السيكولوجية، تلك النزعة التي تعتبر أن القوانين المنطقية مجرد عمليات سيكولوجية تجري فعليًا في الذهن اعتمادًا على المنهج التجريبي، والتي كان قد تبناها في مرحلة كتابته لمؤلف "فلسفة الحساب" (La philosophie de l'arthmetique 1891)، ثم انقلب يعاديها بعد دراساته المنطقية ضمن مؤلف "ابحاث منطقية" (1900 و1901 La recherches logique) الذي يتضمن نقد هوسّرل للنزعة السيكولوجية بدعوى أنها نزعة ريبية لا تميز بين عمليات التفكير التي تدرسها السيكولوجيا وبين الفكرة ذاتها[1] التي هي محور الدراسة الفينومينولوجية الصارمة باعتبارها ماهية خالصة.

وفي هاته المرحلة يبرز المنهج الفينومينولوجي باعتباره تحليلاً للشعور ووصفًا لمكنوناته الذاتية، وهو منهج يتوافق إلى حد كبير مع منهج التحليل السيكولوجي من حيث الموضوع المدروس، لأن كلا المنهجين يقوم بدراسة الشعور، إلاّ أنهما يختلفان بشكل أساسي من حيث طبيعة الدراسة، فبينما يدرس المنهج السيكولوجي الشعور المرتبط بالوقائع الطبيعية، يدرس المنهج الفينومينولوجي الشعور الماهوي[2]؛ وبمعنى آخر تدرس السيكولوجيا الشعور التجريبي، بينما تدرس الفينومينولوجيا الشعور الخالص من أجل الوصول إلى الماهيات الخالصة بعيدًا عن كل حكم مسبق في ما يعرف بالتوجه الماهوي. غير أن هذا التوجه بقي –في نظر هوسّرل– توجُهًا قاصرًا، لخلوه من الراديكالية المنهجية، ولذلك اتجه هوسّرل بالفينومينولوجيا نحو المثالية الترنسندنتالية لتأسيس المنهج الفينومينولوجي باعتباره منهجًا ترنسندنتاليًا ضمن مؤلف "التأملات" (les Méditations 1929)، ومؤلفات سابقة مثل؛

[1] هوسّرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، المصدر السابق، ص 13.

[2] هوسّرل إدموند، الفلسفة علما صارما، المصدر السابق، ص 43.

"الأفكار" (Les idées1913) ثم أكد عليه وشرحه ضمن مؤلفات لاحقة مثل؛ "الأزمة" (la crise 1936).

يعرض هوسّرل ضمن كتاب "التأملات" (1929) منهجه الترنسندنتالي على ضوء الفلسفة الديكارتية متأثرًا بفكرة الذاتية الخالصة للكوجيتو، حيث تقوم الفينومينولوجيا الترانسندنتالية على مبدأ الوعي الذاتي، كما يهدف هوسّرل على غرار "ديكارت" إلى صياغة مبادئ صارمة لإصلاح الفلسفة وجعلها علمًا كليًا يقينيًا، إلاّ أنه يخالفه في فكرة اتخاذ النموذج الفيزيو–رياضي[1] نموذجًا يقينيًا للعلم الكلي انبهارًا بالنتائج العلمية الدقيقة التي بلغها العلم الرياضي الحديث، إذ أن هوسّرل يرفض وضع أي نموذج معرفي أعلى من العلم الكلي، لأن الفينومينولوجيا الترنسندنتالية هي العلم الذي تتأسس عليه جميع معارف العلوم الأخرى. ولأن هوسّرل يرفض –أساسًا– التسليم بأي معرفة مسبقة على نحو البداهة الديكارتية الساذجة. فالبداهة القطعية (évidence) المطلقة، ليست البداهة التي تؤخذ من مسلمات ساذجة، بل هي المستوحات من الوجود المحايث للأشياء ذاتها ضمن نطاق الشعور[2]؛ أي أنها تعني مطابقة الماهية في وجودها الماهوي للموضوع ذاته في وجوده الواقعي، واستنادًا الى ذلك ينتقد هوسّرل الإتجاهات المعرفية السابقة بشكل راديكالي من أجل تأسيس أرضية المنهج الفينومينولوجي على أساس صارم انطلاقًا من نقد دوغمائية الإتجاه الواقعي والإتجاه المثالي معًا، حيث ينتقد مسلمات المذهب الواقعي التي ترد جميع الحقائق إلى الوجود المادي وإلى الوقائع الجزئية التي تقع في إطار زمكاني مستقل عن الذات، كما ينتقد مسلمات المذهب المثالي التي ترد جميع الحقائق إلى تمثلات ذاتية للوعي، باعتبارها أفكار وماهيات مجردة من الأحكام الجزئية العارضة للعالم المادي. فيخصص الفصل الأول من كتاب "الأفكار" (1913) في بيان استحالة الفصل بين الواقعة المادية، والماهية[3] العقلية، لأن الوقائع المادية تشمل المعطيات

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 54.

[2] نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسرل، المرجع السابق، ص 77.

[3] هوسّرل إدموند، أفكار ممهدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهراتية، المصدر السابق، ص 30.

الحسية التي تصير معطيات ماهوية للوعي الذاتي، وبالتالي فإن الواقعة لا تدرك على نحو مفارق، بل على نحو محايث للوعي. وذلك لأن الرد الماهوي يجعل الجزئيات العرضية في الوقائع، ماهيات خالصة تحدس بشكل ذاتي ترنسندنتالي، وعلى هذا الأساس تتأسس ترنسندنتالية المنهج الفينومينولوجي تكملة لتوجهه الماهوي، لكن بشكل أكثر عمقًا وراديكالية.

تنطلق ترنسندنتالية المنهج الفينومينولوجي من لحظة التعليق الإيبوخي لتبلغ ذروتها مع لحظات الرد، التي تبرز أهمية الأنا الترنسندنتالي في بناء المعرفة الخالصة، إذ تعتبر الإيبوخية أهم لحظة فينومنولوجية للإنتقال المنهجي من الموقف الطبيعي إلى الموقف الترنسندنتالي على حد قول هوسّرل: «فإنني بلجوئي إلى عملية التعليق الفينومينولوجي، إنما أحيل أناي الإنسان الطبيعي، وحياتي النفسية، –مجال تجربتي النفسية الداخلية– إلى أناي الترنسندنتالي والفينومينولوجي، الذي هو مجال التجربة الداخلية الترنسندنتالية والفينومينولوجية[1]». فكيف يتم الإنتقال من الموقف الطبيعي إلى الموقف الترنسندنتالي؟

إن العالم الطبيعي هو العالم المادي القائم في الزمان والممتد في المكان، وهو العالم الذي يضم الأشياء المادية، إضافة للذات الإنسانية والذوات الأخرى بوصفها موجودات طبيعية، وليس العالم عبارة عن موجودات ووقائع فحسب، بل هو عالم قيم وتجارب عملية أيضا[2]، وتكمن أطروحة العالم الطبيعي في ما يسمى "الموقف الطبيعي" من العالم، والذي تتخذه الذات ضمن وعيها الساذج، أو ما يسمى بموقف الرجل العادي، الذي يدرك الوقائع والموجودات المادية إدراكًا حسيًا؛ بمعنى أن الموقف الطبيعي يتضمن إعتقاد ضمني في وجود العالم الحسي؛ أي أنه يهتم بالموضوعات الخارجية بوصفها موضوعات مقصودة للوعي المرتبط بعناصر تجريبية، وفي هذا الموقف التلقائي

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 90.

[2] هوسّرل إدموند، أفكار ممهدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهراتية، المصدر السابق، ص 101.

(spontanée) –بتعبير هوسّرل– يدرك الأنا السيكولوجي الموضوع وفقًا لعناصره الإمبريقية، والتي توقن بها الذات يقينًا ساذجًا، لأن الأنا السيكولوجي حين يقر بأنه يرى بيتًا أبيض، فهو يدرك البيت باعتباره وجودًا واقعيًا، وذلك بسبب الإهتمام بالموضوع الحسي والإنغماس في الإنفعالات السيكولوجية والمواقف المسبقة، لكن في الموقف الفينومينولوجي يتحول الأنا إلى أنا ترنسندنتالي وهو ملاحظ غير مهتم أو غير مشارك، يتوجه إلى دراسة عملية إدراك البيت وليس البيت نفسه، باعتبار أن البيت هو عنصر وجودي إمبريقي يجب تعليق الحكم على وجوده أساسًا[1]، لأن الذات قد تقع أحيانًا في الأحكام الزائفة، والأوهام والوسوسة[2] بسبب قصور الأفكار الحسية التي تبقى حبيسة للوضع المادي النسبي في الموقف الطبيعي. لكن هل يعني ذلك أن الموقف الفينومينولوجي يستدعي الإستغناء التام عن الموقف الطبيعي من أجل الوصول إلى معرفة ترنسنتالية خالصة؟

يشير هوسّرل إلى أن الأفكار الحسية التي تنسجها الذات عن العالم على نحو مفارق للوعي الخالص، هي أفكار قاعدية[3] تمثل أبسط أشكال الوعي، وبالتالي فإنه لا يلغي أحكام الموقف الطبيعي بشكل مطلق، لأن هذا الموقف هو موقف أولي تتخذه الذات لإدراك العالم، لكن ما يرفضه هوسّرل هو أن تبقى الذات في إطار الموقف الطبيعي حبيسة للموضوعية الحسية الساذجة. ولذلك يختلف التعليق الإيبوخي عند هوسّرل عن الشك الديكارتي، لأن الفينومينولوجيا على الرغم من اقرارها بالقيمة الذاتية لليقين المعرفي إلاّ أنها لا تلغي القيمة الموضوعية للعالم، أمّا المثالية الذاتية لديكارت فهي فلسفة منغمسة ضمن أحكامها الذاتية المطلقة.

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 103-106.

[2] هوسّرل إدموند، أفكار ممهدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهراتية، المصدر السابق، ص 101-105.

[3] المصدر نفسه، ص 104.

تضمن الإيبوخية إنتقالة منهجية نحو الموقف الترنسندنتالي من خلال تعليق الحكم عن كل فكرة مسبقة بما في ذالك الوضع الوجودي الطبيعي مثل؛ فكرة وجود الذات والعالم، إضافة للوضع التاريخي الذي يشمل الأفكار والمعتقدات والنظريات العلمية المسبقة[1]، وبذلك ينتقل الفكر من الوعي الساذج الى الوعي الفلسفي الفينومينولوجي الذي يطلق عليه هوسّرل إسم الموقف الترنسندنتالي. ويتميز الموقف الفينومينولوجي بدراسة الظاهرة من حيث هي انعطاء محايث للوعي، كما يدرس كيفيات عطائها، حيث يبدأ الوعي الخالص في التمييز بين الكيفيات العارضة، والكيفيات الماهوية[2]. إذ تعني الكيفيات العارضة؛ الخصائص الجزئية المتغيرة في الموضوعات الطبيعية مثل؛ اللون والحجم، بينما تعني الكيفيات الماهوية؛ الخصائص الجوهرية الثابتة في الموضوع باعتباره موضوعًا معطى للوعي الخالص، ليصبح ماهية كلية خالصة من خلال الرد الماهوي.

يقوم الرد الماهوي على فكرة إدراك الماهية أو بمعنى أخر، تحويل الوقائع التجريبية إلى ماهيات خالصة، ويبرز الفرق بين الواقعة (Fait) والماهية (Eidos) في أن الواقعة هي الظاهرة الحسية، الجزئية، المتغيرة، أما الماهية فهي الظاهرة العقلية، الكلية، الثابتة، وعلى الرغم من أن هوسّرل يؤكد على عدم الفصل التام بين الواقعة والماهية بدعوى أن كلاهما يعبر عن الظاهرة المقصودة، إلاّ أنهما يختلفان من حيث كيفية وجودهما، فبينما توجد الواقعة وجودًا تجريبيًا، توجد الماهية وجودًا عقليًا. وعمومًا ما يهم –فينومينولوجيًا– هو الماهية لأن الفينومينولوجيا تريد لنفسها أن تكون منهجًا وعلمًا للماهية وليس علمًا للوقائع. وربما لهذا السبب ينتقد الوجوديون فينومينولوجيا هوسّرل من حيث أنها فلسفة ماهيات وليست فلسفة وجود[3]، غير أن هوسّرل نفسه قد أكّد –مسبقًا– أن ما يميز

[1] سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسّرل، المرجع السابق، ص 145.

[2] هوسّرل إدموند، أفكار ممهدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهراتية، المصدر السابق، ص 106.

[3] ا.م بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، المرجع السابق، ص 206.

الفينومينولوجياعن بقية العلوم الأخرى هو دراستها للماهيات الخالصة، لأن الفينومينولوجيا ترفض طبعنة الشعور وتتجه نحو تجريده وتحليله ووصفه كما يبدو للوعي المحايث، حيث يقسم هوسّرل العلوم إلى صنفين رئيسيين؛ علوم الوقائع، وهي التي تدرس الظواهر التجربية مثل العلوم الطبيعية والفيزيائية، وعلوم الماهيات وهي التي تدرس الظواهر الماهوية مثل العلم الرياضي، وهو الصنف الذي تنتمي إليه الفينومينولوجيا في منهج تحليلها الماهوي، كونه يشكل ميزة أساسية لها، لأن التوجه نحو الماهيات أكثر شمولية من الوقائع، فبينما تبقى وقائع العلوم الطبيعية منحصرة في إطار التجربة الواقعية، فإن المواضيع الماهوية لا تدل بالضرورة على موجودات واقعية، وهي مع ذلك تبقى مواضيع للتجربة الشعورية مثل ماهية المواضيع الخرافية[1]، فعلى الرغم من أن "العنقاء" كائن خرافي غير موجود واقعيًا، إلاّ أن ماهية فكرة العنقاء موجودة في الشعور الخالص، ولذلك يمكن أن تكون موضوعًا للدراسة الفينومينولوجية. وفي إطار الفينومينولوجيا الترنسندنتالية لا يتوقف المنهج الفينومينولوجي عند فكرة الرد الماهوي، بل يلجأ إلى فكرة أخرى أكثر مثالية؛ هي فكرة الرد الترنسندنتالي لبيان قيمة الأنا الترنسندنتالي في تأسيس المعرفة.

يتعلق الرد الترنسندنتالي بترنسندنتالية الأشياء ذاتها[2]، حيث يعتمد على تحويل العالم بموضوعاته المادية، ووقائعه الحسية إلى ظواهر خالصة تمثل الماهيات الحقيقية للأشياء، إذ يكشف الرد الترنسندنتالي عن الأنا الترنسندنتالي القائم خلف الوجود المعرفي، أي أنه ما يضفي المعاني الحقيقية على العالم، خلافًا للأنا النفسي الذي تستند معارفه على المعطيات الحسية الجزئية[3]. وتعتبر ترانسندنتالية الرد الفينومينولوجي منهجًا أكثر عمقًا من المنهج الديكارتي، لأن هوسّرل رفض الوقوع في الدور الديكاتي (cercle cartésien) من أجل تأسيس يقين البداهة الأولى على ترنسندنتالية الضمان الإلهي

[1] ا.م بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، المرجع السابق، ص 185.

[2] Jean-Francois Lyotard, La phénoménologie, Presses Universitaires de France, Editions Delta, paris, 1996.p 18.

[3] سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسّرل، المرجع السابق، ص 133.

(Garantie divine) أو مفارقة الإله اللانهائي (l'infini)، وهو الأمر الذي يكون مستبعدًا – فينومينولوجيًا– مثل استبعاد مفارقة العالم ومفارقة الأنا سيكوفيزيائي[1]. لأن في الترانسندنتالية الفينومينولوجية لا يوجد ماهو أعلى يقينًا وضمانًا للقين من الوعي الترنسندنتالي نفسه.

يرتبط الرد الترنسندنتالي بالشعور الخالص المتميز بالقصدية، إذ أنه شعور قصدي لموضوعاته الماهوية الترنسندنتالية وليس مجرد انفعال حسي بالموضوع، حيث يبرز الشعور من خلال الرد بوصفه متميزًا جذريًا عن الواقع الموضوعي، وكذالك باعتباره وجودًا مطلقًا، يحدد المعاني اليقينية للعالم. وإذا كانت الإيبوخية موقف سلبي لتعليق الحكم عن الوضع الوجودي، والمادي، والتاريخي للموضوع، فإن الرد الماهوي موقف ايجابي يستخلص الماهية المجردة للمواضيع الموقوفة إيبوخيًا، لكن الرد الترنسندنتالي يتجاوز كل ذلك إلى موقف آخر أكثر إيجابية من استخلاص البواقي الماهوية للموضوع، لأن هذا الرد هو ما يضفي على الموضوع معناه ضمن التجربة الإدراكية الترنسندنتالية للعالم من خلال الشعور القصدي وما يسمى بالتأليف البنائي (synthèse structurelle).

يستمد التأليف البنائي معناه من بنية الشعور القصدي، الذي يتألف من عنصرين أساسيين موضوع القصد (Noema)؛ أي محتوى الإدرك، وفعل القصد (noesis)؛ أي فعل الإدراك، وهذان العنصران يتكاملان في وحدة شعورية ذات طابع تأليفي تمثلها علاقة قصدية لتضايف الموضوع شعوريًا، وتحصل في مجال التجربة الترنسندنتالية. ويتم التأليف (synthèses) بين فعل الإدراك وموضوع الإدراك لتأسيس البنية (structure)[2]؛ أي البنية المعرفية، الكلية. أمّا الصورة المنطقية للتأليف البنائي، فتمثل تطابق ذات الموضوع مع نفسها؛ بمعنى تحقيق هوية الموضوع في الشعور الداخلي، ولا يتحقق ذلك إلاّ من

[1] نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسّرل، المرجع السابق، ص 105.

[2] سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسّرل، المرجع السابق، ص 167.

خلال الإنتقال الفينومينولوجي من الزمان الموضوعي الخارجي (Temps objectif externe) الذي لا يشكل سوى تتابع زمني مفارق، إلى الزمان الترنسندنتالي الداخلي (Temps transcendantal interne) الذي يعرض مراحل تشكل المعنى بشكل قصدي واعي، يسير وفق ديمومة غير متناهية. إلاّ أن الشعور الترنسندنتالي لا يخضع للزمان الترنسندنتالي بقدر ما يعنيه، ويعني دوره في تركيب المعنى المحايث[1]؛ أي أن الزمان الترنسندنتالي هو عنصر من عناصر التجربة الشعورية لا ينفصل عنها وأهميته المطلقة هي تأسيس المعنى على نحو محايث للشعور. فمثلاً في إدراك المكعب، هناك فرق بين ديمومته الواقعية التي تنعرض بشكل مستقل عن الذات وتمثل معطيات جزئية، وبين ديمومته الداخلية التي تنعرض فيها أفعال إدراكه لتأسيس إدراك كلي بماهيته، وما يحقق التأليف البنائي لإدراكه هو تطابق ماهية وجوده الواقعي مع وجوده المحايث للشعور القصدي[2] في نطاق تراتبية زمانية داخلية. وبهذا يرتبط التأليف الكلي للشعور بالوعي الباطني بالزمان الترنسندنتالي، الذي يتآلف فيه الفعل والمضمون القصدي معًا.

تمثل العلاقة القصدية دليلاً ترنسندنتاليًا على البنية النموذجية للفينومينولوجيا، والتي تتحدد بصيغة "أنا – أفكر– مفكر به"، من حيث أنها حالة شعورية للموضوع ذاته، والتي تكون فيها نقطة الإبتداء هي الموضوع المعطى، ومنه يتعالى التفكير إلى نمط الشعور الترنسندنتالي المطابق له[3]؛ أي أن العلاقة القصدية هي الرابط الترنسندنتالي بين الذاتية الترنسندنتالية والمواضيع الشعورية، حيث يقوم الأنا الترنسندنتالي بحدس الماهيات ضمن الشعور القصدي ويتضمن هذا الحدس رؤية عقلية لكلية الماهيات الثابتة المحايثة للوعي[4]، إذ يطلق هوسّرل مصطلح "الحدس" على كل فعل يمثل تجربة شعورية لشيء

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص ص 121، 122.

[2] المصدر نفسه، ص ص 118، 119.

[3] المصدر نفسه، ص ص 133، 134.

[4] المصدر نفسه، ص ص 138، 139.

ما على اعتبار أنه معطى شعوري[1]، وأهم ما يميز هذا الحدس أنه عقلي، وقصدي للموضوعات الترنسندنتالية المحايثة للوعي. وبالعودة إلى القصدية، فإنها تتخذ دلالتها الترنسندنتالية من تحولها من قصدية ماهوية في الرد الماهوي إلى قصدية عملية انتاجية في الرد الترنسندنتالي، وذلك لأن هذا الأخير لا يعني مجرد رد شعور ماهوي محايث، بل هو رد شعور ترنسندنتالي مؤسِس ومُنتِج لمعاني العالم، ولذلك تسمى الفينومينولوجيا الترنسندنتالية بالفينومينولوجيا التأسيسية.

إن المنهج الفينومينولوجي هو منهج ماهوي، كلي، ترنسندنتالي لتأسيس المعنى الأنطولوجي من خلال انجازات الذات الترنسندنتالية، ومن معنى التأسيس (Fondation) الراديكالي لمعنى الوجود والعالم، تستمد ترانسندنتالية الفينومينولوجيا معناها من حيث هي نظرية إبستيمولوجية ومنهج ترنسندنتالي للتجربة الشعورية الذاتية المؤسِسَة لمعاني العالم، لكن كيف يمكن لهاته النظرية الترنسندنتالية للمنهج الإبستيمي، أن تتحول الى نظرية ترانسندنتالية لعالم المعيش؟

[1] Jonathan Rée and J. O. Urmson, The Concise Encyclopedia of Western Philosophy, Routledge, the USA and Canada, Third Edition, 2005, p 420.

المبحث الثاني: النظرية الترنسندنتالية لعالم المعيش

إن الحديث عن النظرية الترنسندنتالية لعالم المعيش (Erlebniswelt) هو الحديث نظرية فينومينولوجية لأزمة المعنى، وعلى الرغم من أن هاته النظرية قد ظهرت مع هوسّرل في أواخر حياته الفكرية، إلاّ أن شعوره بالأزمة قد ظهر منذ البداية في مرحلة كتابته لمؤلف "فلسفة الحساب" (La philosophie de l'arthmetique 1891) إلى غاية مرحلة كتابته لمؤلف "أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية" (La Crise des sciences européennes et la Phénoménologie transcendantale1936) [1]، غير أن هذا المؤلف الأخير كان أكثر تأكيدًا على ذلك بشكل جلي من العنوان حتى المضمون، حيث دعى هوسّرل من خلاله على ضرورة الفينومينولوجيا الترنسندنتالية بعد أن احتدت أزمة عالم المعيش، العالم الذي تم اقصاؤه من طرف المنظور العلمي والتقني؛ أي العالم من حيث هو أفق (Horizon) مرتبط بانجازات الذات، والتي تجري فيه خبراتنا اليومية[2] بوصفها تجارب معاشة مع غيرها من الذوات الأخرى، فهو عالم الخبرة، والثقافة، وهو العالم الأولي الذي تتأسس عليه جميع معارف العالم العلمي، الذي تحدده لغة العلم بمفاهيم علمية وتقنية جامدة، لتفصله عن عالم المعيش الإنساني.

ظهرت أزمة عالم المعيش انعكاسًا للتطور الرياضي والعلمي الذي طرأ على الفكر الغربي في القرن التاسع عشر، والذي أثّر كثيرًا على نظرة العلماء والفلاسفة للعالم، مُحدثاً أزمة مركبة شملت؛ أزمة العلوم الأوروبية والسيكولوجيا، وأزمة الفلسفة، وأزمة المعنى. ويحدد "ريكور" في كتابه (A l'école de la Phénoménologie) الظروف الرئيسية للأزمة في نقطتين أساسيتين؛ هما مشكلة النزعة الموضوعية، ومشكلة الفلسفة الترنسندنتالية الحديثة،

[1] مجموعة من الأكاديميين العرب، موسوعة الأبحاث الفلسفية، الفلسفة الغربية المعاصرة– صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج– ج1، المرجع السابق، ص 153.

[2] هوسّرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، المصدر السابق، ص 643.

فهاتان المشكلتان قد خلقتا ضرورة بالغة لنشأة الفينومينولوجيا الترنسندنتالية[1]. وهو ما يوضحه هوسّرل في كتاب "الأزمة" (1936) الذي يعتبر فيه أن أزمة العلوم الأوروبية مرتبطة بسيطرة النزعة الموضوعية على النظرة العلمية للعالم، من حيث هي نظرة تقنية جافة، أدت الى تغييب المعاني الروحية لعالم المعيش، وتشييء الإنسانية، والتخلي عن الأسئلة الجوهرية للوجود الإنساني، والمتعلقة بطبيعة الإنسان، ومحيطه، ومصيره، ودوره الذاتي في إنتاج المعرفة، لأن النزعة الموضوعية تستبعد كل ما هو ذاتي من دائرة العلم[2]. كما أن العلوم الطبيعية قد افتقرت إلى الوحدة بين تخصصاتها بعد أن استقلت عن الفلسفة وفقدت شموليتها، وهو ما يرتبط بأزمة الفلسفة ذاتها، والتي تتمحور حول التشكيك في إمكانية المعرفة الميتافيزيقية، لينتهي الأمر بأزمة حادة للمعنى نتيجة للإبتعاد عن البحث في القضايا الفلسفية المهمة للإنسان، مثل أسئلة معنى التاريخ، ومعنى الإنسانية وثقافتها، ومعنى الحرية، ومعنى الوجود برمته.

ينتقد هوسّرل النزعة الموضوعية التي تحاول جعل النموذج الرياضي–الفيزيائي نموذجًا أسمى لكل المعارف، لأن مناهج هذين العلمين محدودة بنسقها، وهو ما يفسر عجز السيكولوجيا على أن تكون علمًا تجريبيًا بحتًا[3]، وهو ما ينطبق على سائر العلوم الإنسانية بسبب اختلاف طبيعة مواضيعها عن مواضيع المادة الجامدة، الأمر الذي أشار إليه "دلتاي"[*] (Wilhelhm Dilthey: 1833-1911) –مسبقًا– ضمن التمييز بين علوم الروح

---

[1] Paul Ricoeur , A l'école de la Phénoménologie, Librairie philosophique J.vrin, paris, 1986.

[2] هوسّرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، المصدر السابق، ص ص 42-45.

[3] المصدر نفسه، ص ص 123-130.

[*] فلهلم دلتاي (Wilhelhm Dilthey: 1833-1911)؛ فيلسوف ألماني، درس بجامعة برلين عام (1853) ثم عمل أستاذًا في جامعة بال (سويسرا)، تاثر بالمناخ الوضعي السائد في الفلسفة الألمانية، فدرس بصريات هلمهولتز، وفيزياء فخنر السيكولوجية ، ليتجه– بعد ذلك– نحو الأبحاث السيكولوجية ونحو الدراسات التاريخية والأدبية، سعى دلتاي الى اقامة استقلال منهجي لعلوم الروح الإنسانية عن علوم المادة الطبيعية، وأكد على أن فهم العالم التاريخي الإجتماعي يستند على التجربة السيكولوجية والتجربة المعاشة. من أهم مؤلفاته: "حياة شلايمخر" (1867)، "مدخل الى دراسة العلوم الإنسانية" (1883)، "ماهية الفلسفة" (1907). [جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، المرجع السابق، ص ص 304، 305.]

وعلوم المادة. كما انتقد هوسّرل النزعة التراسندنتالية الحديثة أيضا كونها نزعة ذاتية تلغي العالم الخارجي كليًا لتبنى المعرفة على تمثلات ذاتية معزولة، فهي بذلك لا تؤسس للعلم الحقيقي[1].لأن العلم الحقيقي هو علم يزاوج بين ماهو ذاتي وماهو موضوعي، لإنتاج المعرفة اليقينية الصارمة.

إن أزمة عالم المعيش –حسب هوسّرل– متجذرة في مزالق كل من النزعة الموضوعية، والنزعة الترنسندنتالية الحديثة، والحل –في نظره– هو تجاوز هاتين النزعتين بمواقفهما المتطرفة، إلى ترانسندنتالية جديدة متجاوزة لعوائق كل من النزعة الموضوعية والترنسندنتالية معًا، وتمثل الشكل الأخير للفينومينولوجيا الترانسندنتالية[2]، هي الفينومينولوجيا الهرمونيطيقية باعتبارها نظرية لتأويل معاني العالم، وفينومينولوجيا مقوّمة نظرا لاهتمامها بأفعال التقوّم الذاتي للعالم الخارجي، والأهم، أنها فينومينولوجيا تكوينية تهتم بتكوين معاني عالم المعيش الذي غيبته النظرة العلمية للنزعة الموضوعية.

تعني الفينومينولوجيا التكوينية؛ فينومينولوجيا ترنسندنتالية لتكوين معنى العالم وهي بذلك تختلف عن الفينومينولوجيا الستاتيكية التي تهتم بكيفيات البناء الواعي للموضوعات بماهي ماهيات ثابتة، فالفينومينولوجيا التكوينية لا تتعلق بتحليل الأنساق والبنى العلائقية الجاهزة لبناء الموضوعات الماهوية، بل هي تحليل لتكوين هذا البناء وتاريخه الداخلي وأفق وعيه المركب[3]، وفي هاته المرحلة يتجاوز هوسّرل الطرح الستاتيكي لمؤلف "الأفكار" (1913) الذي كان فيه –بوحي كانطي– يرى بأن الأنا؛ عنصر ثابت مطابق لذاته في كل عمليات الوعي، حيث يصبح منذ مؤلف "التأملات" (1929) يرى بأن الأنا؛ عنصر معقد تتآلف في تاريخيته العديد من القدرات والقناعات والمكتسبات والتجارب[4]،

[1] هوسّرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، المصدر السابق، ص 131.

[2] المصدر نفسه، ص ص 132، 133.

[3] المصدر نفسه، ص 25.

[4] المصدر نفسه، ص 25.

وليس هذا التاريخ التكويني خاصًا بالأنا فحسب، بل خاصًا بموضوعاته أيضًا، التي تملك تاريخًا تكوينيًا قبليًا لكيفيات بنائها. ويعني "القبلي"؛ ماهو سابق عن البناء المعرفي، وهو ما يحدد المعنى الترنسندنتالي ضمن الأفق القبلي المحايث للتجربة الشعورية، وسيتم توضيحه ذلك وفق المسائل التكوينية، من خلال المخطط التالي:

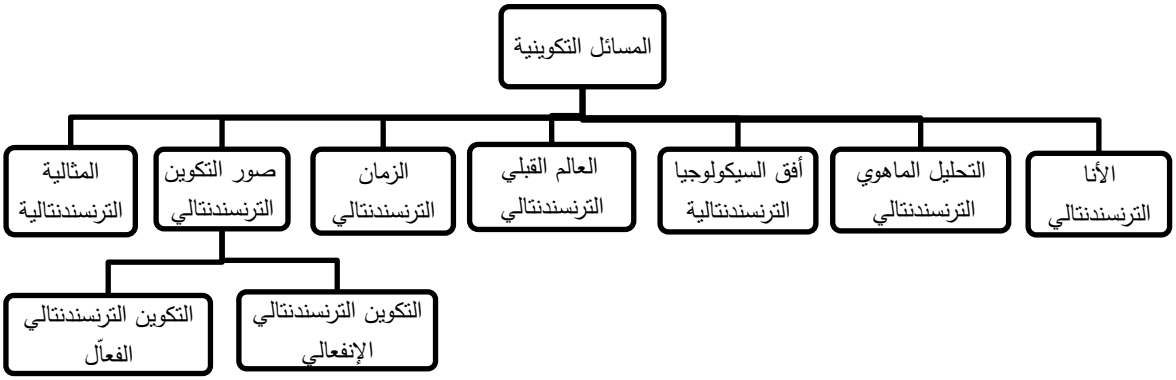

مخطط يوضح: مسائل التكوين في الفينومينولوجيا الترنسندنتالية.

يرتبط التكوين الترنسندنتالي بعدة مسائل تكوينية، طرحها هوسرل في التأمل الرابع من كتابه التأملات من أجل بيان الأطر الرئيسية للفينومينولوجيا التكوينية، منها ما يتعلق بالأنا الترنسندنتالي، والتحليل الفينومينولوجي، وأيضا مجال السيكولوجيا الترنسندنتالية وكذالك ما يخص العالم الصوري القبلي، بالإضافة الى مسألة الزمان الترنسندنتالي، وصور التكوين. وأهم مسألة في التكوين هي مسألة الذاتية الترنسندنتالية، وهي مسألة تتعلق بمدى ارتباط الأنا الترنسندنتالي بالشعور القصدي، لأن كل شعور هو شعور بشيء ما؛ أي أن هناك توافقًا بين التكوين الداخلي للعالم، والتكوين الخارجي للعالم، إلاّ أن التكوين الأول ماهوي، بينما التكوين الثاني مادي. ويتكون الأنا الشعوري من خلال تآلف الموضوعات الشعورية الماهوية مع الشعور الزماني والتجربة الشعورية، وكل هاته العناصر تتضايف من أجل تكوين الهوية المتجددة للأنا من خلال العمليات القصدية[1].

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 160 ،161.

إذ أن الأنا ليس قطبًا لتوحيد فارغ، بل هو "امتلاء عيني" بمفهوم هوسّرل؛ أي أنه قطب هوية متجدد، ويكتسب هويته من خلال الأفعال القصدية التي يقوم بها بشكل مستمر مثل التذكر والإدراك والتخيل[1]، ومع ذلك فإن الأنا الترنسندنتالي لا يتغير بتغير المعطيات الشعورية مثل الأنا النفسي، بل هو تكوين مستقل بماهية راديكالية بديهية لوجوده لذاته، بوصفه مونادًا متفردًا بتعبير ليبنيتز[2]؛ أي أنه أنا متميز بوعه الذاتي بأحواله الشعورية مما يجعله يمثل ذاته بشكل فريد. أما التحليل الماهوي للأنا فهو العملية التي يتم بها التكوين الماهوي للعالم من خلال المنهج الفينومينولوجي[3]؛ أي بواسطة الرد الماهوي والرد الترنسندنتالي، وما يتبعهما من وصف للماهية الخالصة، بحيث تشكل هاته الماهيات الترنسندنتالية البنى النموذجية للتكوينات الداخلية للعالم الخارجي، لكن بشكل أكثر كلية وصورية وضرورة ومطلقية[4]. أمّا مجال هاته البُنى الماهوية الصورية فهو السيكولوجيا الترنسندنتاية التي تمثل أفق ترنسندنتالي مطلق للتجربة الشعورية القصدية المحايثة[5]. خلافًا لمجال السيكولوجيا التجريبية بطابعه النسبي المتغير.

تقر الفينومينولوجيا التكوينية الترنسندنتالية بأن منهجها صوري لأن تكوين الأنا يكشف عن بنية صورية ماهوية تتضمن كل المعطيات الممكنة للعالم الواقعي، بشكل قبلي، إذ أن «القبلية الخاصة بالأنا الترنسندنتالي بما هي كذالك هي صورة جوهرية تشمل عددا لا يحصى من الصور التي هي بمثابة نماذج قبلية لمتحققات الحياة القصدية[6]» والفينومينولوجيا التكوينية هي العلم الذي يدرس تلك البنى والصور والعلائق وحتى القوانين التي يتضمنها الأنا الترنسندنتالي بشكل قبلي من أجل تكوين المعنى الخالص

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 163.

[2] المصدر نفسه، ص 165، 166.

[3] المصدر نفسه، ص 168.

[4] المصدر نفسه، ص 171.

[5] المصدر نفسه، ص 174، 175.

[6] المصدر نفسه، ص 177.

للموضوعات الخارجية بعد التجربة الشعورية المطابقة لها. ويمثل الزمان الترنسندنتالي الصورة الكلية للتكوين الإيغولوجي بما يضفيه من علاقات تشكل المعنى الممكن، فهو المجال الترنسندنتالي الذي يحدد المعنى من خلال التلاحق والتعاقب الباطني للوعي[1]. وبالتالي فهو ما يعطي نوعًا من النظام والتراتبية للحدث الشعوري الواعي لخلق المعنى.

أمّا التكوين الترنسندنتالي يشتمل على صورتين أساسيتين هما؛ التكوين السلبي الإنفعالي، والتكوين الإيجابي الفعّال. فأما التكوين الإنفعالي فهو تكوين مهمته تكوين الترابط بين المعطيات الحسية، لكن ليس من خلال الأنا النفسي بمفهوم "هيوم" للسببية، بل هو ما يعنى بترابط الكيفيات الحسية بحسب عمليات التعاقب والتلاحق في الزمان الباطني للوعي القصدي[2]. أما التكوين الفعّال فهو تكوين مُكَمّل للتكوين الإنفعالي ووظيفته التأليف، ويشمل جميع وظائف العقل العملي، لأنه يدمج العديد من الفعاليات والقدرات الخاصة بالأنا الترنسندنتالي من أجل تكوين المعنى، وكما يتم التكوين الفعّال ضمن الذاتية الترنسندنتالية، فإنه يتم أيضًا ضمن الفعاليات البينذاتية المشتركة مثل؛ الفعاليات الثقافية[3]؛ أي البينذاتية الترنسندنتالية.

ومن خلال أفق الوعي الترنسندنتالي تنتقل الذات إلى مسألة المثالية الترنسندنتالية التي لا تحدد الفينومينولوجيا باعتبارها سيكولوجيا ذات نزعة تجريبية، بل سيكولوجيا ذات نزعة ماهوية خالصة، لأن حدس المواضيع باعتبارها ماهيات باطنية هو حدس للشعور القصدي الباطني الترنسندنتالي، لكن مع استبعاد فكرة الضمان الإلهي أو اليقين الترنسندنتالي للإله، التي كانت تؤيدها الترنسندنتالية الكلاسيكية الديكارتية[4]، لأن ترنسندنتالية الفينومينولوجية لا تعترف بشيء أكثر يقينًا من اليقين الذاتي للأنا

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 178.

[2] المصدر نفسه، ص ص 189، 190.

[3] المصدر نفسه، ص ص 182- 184.

[4] المصدر نفسه، ص ص 191- 194.

الترنسندنتالي. وليس الأنا عنصرًا وحيدًا –كما تمت الإشارة سابقًا– بل هو عنصر فعّال متفاعل في أفق بينذاتي مشترك، لتصبح الذاتية الترنسندنتالية، بينذاتية ترنسندنتالية في ما يسمى بفكرة "التذاوت الترنسندنتالي" (intersubjectivité transcendental).

يطرح هوسّرل فكرة التذاوت في كتابه التأملات (1936) –تحديدًا– في التأمل الخامس باعتبارها تجاوزًا لإيغولوجيا الترنسندنتالية الكلاسيكية الى تجربة الآخر في ترنسندنتالية الفينومينولوجيا أو ما يمثل حقل علاقة ترنسندنتالية بالآخر، والذي يعتبره هوسّرل ذاتية بينية مونادية[1]، ولعل هذا الإعتبار هو أكثر ما يوضح تأثير ليبنتز على فينومينولوجيا التذاوت في فكرة تعالق المونادات المتفردة والتي تتميز بوعي ذاتي يربطها بالمونادات الأخرى. ويتحدد معنى التذاوات في خاصية "النحن الترنسندنتالي"، أو "التجمع الترنسندنتالي للنحن" في مقابل الوجود الفردي للأنا؛ أي أن التذاوت هو العلاقة التي تنطلق من معنى أنطولوجي لتتعدى ذلك إلى معنى ترنسندنتالي يجمع بين الذوات المفكرة، إذ يصبح الرد الترنسندنتالي للأنا، ردًا تذاوتيًا[2] في العلاقة البينذاتية، وهاته العلاقة تطرح حقلاً تبادليًا للتقوُّمات الترنسندنتالية بين الذوات، يسمى الأفق، وليس التذاوت ذو معنى تجريبي لأنطولوجيا إمبريقية، بل هو معنى مثالي لأنطولوجيا تجتمع فيها الأفكار لتتجاوز التقوُّم الذاتي في وجوده الفردي إلى التقوُّم البينذاتي في وجوده المشترك.

يحضر الآخر في التجربة الفينومينولوجيّة بوصفه موضوعًا ترنسندنتاليًا مستمد من العالم الواقعي الطبيعي، غير أن إدراك الآخر الإنساني يختلف عن إدراك الجمادات أو الأشياء الطبيعية الأخرى على الرغم من انتمائه للطبيعة بشكل ما، وذلك لأن الآخر دوما ما يؤثر على الذات ويتأثر بها فكريًا ونفسيًا، أي أن الآخر هو موضوع نفسي–طبيعي[3]، ولأنه كذلك فإن التجربة التذاوتية الواعية للذات، تكون فعالة ومتفاعلة مع الآخر. لأنها

[1] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 205.

[2] محمد محسن الزراعي، مدخل إلى الفينومينولوجيا، المرجع السابق، ص 260.

[3] هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية، المصدر السابق، ص 208.

تمثل تجمع ذوات مفكرة، مرتبطة بأفعال التقوّم الترنسندنتالي المشترك الذي يتعدى حدود ماهو إمبيريقي إلى ماهو مثالي. وبالتالي تشكل العلاقة التذاوتية فعاليات متبادلة ثقافيًا وفكريًا تتفاعل ضمن أفق عالم المعيش.

إن الفينومينولوجيا التكوينية هي نظرية ترنسندنتالية لعالم المعيش، من حيث هو أفق طبيعي وتلقائي يكتسب طابعًا ترنسندنتاليًا ضمن الفعاليات المشتركة للبينذاتية المفكرة، فعالم المعيش هو عالم التجارب والخبرات اليومية، والأفكار الثقافية والحوار المتبادل، وأن أزمة عالم المعيش لا تكمن سوى في تغييب هذا المعنى ضمن معنى تقني ترسمه قوانين العالم الفيزيو–رياضي الذي تغيب فيه الذات الإنسانية وقيمها الروحية التي تجعلها عنصر فاعل يضع القوانين العلمية دون أن يتموضع ضمن قالبها المادي البحت. وبالتالي فإن حل أزمة العالم يكمن ضمن فهم فينومينولوجي عميق للمعاني الترانسندنتالية لعالم التجربة المعاشة، ليصبح العالم العلمي، هو ذاته عالم المعيش الإنساني ضمن تجاربه وخبراته.

تعطي الفينومينولوجيا الترنسندنتالية قيمة كبيرة لمفهوم الأفق باعتباره مجالاً لتجارب المعنى الذاتي والتذاوتي الترنسندنتالي للعالم، وهاته التجارب لا تعتبر تجاربًا لمعطيات واقعية، ذات معنى في ذاتها، بل هي معطيات تأخذ معناها الترنسندنتالي من التأسيس الشعوري لعالم المعيش من حيث هو أفق عالمي يحمل دلالته القبلية بشكل مسبق قبل أن يتم تكوينه بعديًا من قبل التجربة الشعورية الخاصة بالموضوع القصدي الواقعي، وهو ما يجعل من الفينومينولوجيا فلسفة ترنسندنتالية ذات طابع مثالي ينحرف عن هدفها الأساسي الذي وضعه هوسّرل لتجاوز كل من الواقعية–المثالية. لأنها أضحت بالفعل فلسفة ترنسندنتالية مثالية لتكوين المعاني اليقينية للعالم على أسس ذاتية، بل ذاتية قبلية للوعي الترنسندنتالي. ومن هذا المنطلق يرفض "هايدغر" البعد الترنسندنتالي للفينومينولوجيا من حيث اعتمادها المتطرف على إنجازات الوعي الترنسندنتالي، وعلى الرغم من تاثره بالمنهج الفينومينولوجي، إلاّ أنه ينتقد ترنسندنتالية هوسّرل التي تقوم بتحليل الماهيات الخالصة وحدسها ضمن أفق قبلي مثالي، حيث يربط في كتابه "الكينونة والزمان"

(Être et temps 1927) السؤال عن الوجود بالوجود المتعين، من خلال فكرة الآنية، ويشير إلى الزمان باعتباره أفق ترانسندنتالي للسؤال عن الوجود[1]، فهو ما يعبر عن أنية الدازاين "الموجود هنا"، ليصبح الترنسندنس هو تعالي في الزمان نحو الوجود في الزمان، أو واقعية الوجود، للإنتقال من فكرة الأنا الترنسندنتالي المثالي إلى فكرة الأنا الموجود في العالم الواقعي، وهي انتقالة فينومينولوجيّة نحو أنطولوجيا هيرمونيطيقية (ontologie hermonétique) باعتبارها تحليلاً للكينونة، وليست تحليلاً للماهيات الترنسندنتالية.

وإذا كانت فينومينولوجيا هايدغر قد حوّلت مسار الترنسندنس نحو فهم الموجود، فإن فينومينولوجيا ميرلوبونتي (Merleau-Ponty: 1908-1962) أيضًا قد تجاوزت ترانسندنتالية الوعي الخالص نحو ترانسندنتالية خبرة العالم الطبيعي، لتتحول مقولة الوعي الترنسندنتالي إلى مقولة الوعي المتجسد[2] في فينومينولوجيا الجسد (phénoménologie de corps) التي تقوم على الإدراك الحسي المرتبط بالوجود الواقعي، بدلاً من الوجود المثالي. وفي موقف مقارب ينتقد "رومان إنغاردن" ترانسندنتالية هوسّرل لإنغماسها في الطرح المثالي، لأنها تؤسس المعنى الواقعي للموضوعات الخارجية على الأفعال القصدية للوعي الترنسندنتالي، بحيث يصبح الموضوع مجرد مضمون نوئيماتيكي (contenu noématique) أو معنى مقصود[3]، باعتباره محتوى ماهوي خالص. وهذا يعني أن الموضوعات الخارجية تفقد قيمتها الواقعية لتنحصر في كيانات ماهوية تنجزها الذات الخالصة، لأن هوسّرل يجعل من الموضوعات الماهوية القبلية مطابقة للموضوعات الواقعية المعطاة من خلال التجربة الواقعية من حيث هي انعطاءات محايثة للوعي، ومن أجل تجاوز هاته المثالية يميز

[1] مارتن هايدغر، الكينونة والزمان تر: فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت –لبنان، 2012، ص 107.

[2] الطيب بوعزة، يوسف بن عدي، الهيرمونيطيقا واشكالية النص، مؤمنون بلا حدود للدراسات الفلسفية والأبحاث، الرباط، (د.ط)، 2016، ص 65.

[3] سعيد توفيق، الخبرة الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1992، ص ص 321، 322.

إنغاردن بين نمط وجود الموضوع القصدي الخالص، ونمط الموضوع الواقعي[1]. فالموضوع القصدي الخالص لا ينفصل وجوده عن وجوده القصدي المناظر له، وهو ما يظهر في الأعمال الفنية من حيث هي نشاطات مقصودة تتعلق بالمتذوق، دون أن تفصل بنيتها عن الأفعال القصدية للوعي الذاتي، أمّا الموضوع الواقعي فهو لا يعتمد في وجوده على النشاط القصدي، لأن بنيته مستقلة عن الوعي؛ أي أنها مفارقة للوعي الخالص وليست محايثة له.

ولا يكتفي إنغاردن بالتمييز بين الموضوعات القصدية والموضوعات الواقعية، بل يتعدى ذلك إلى التمييز بين الموضوعات القصدية الماهوية، والموضوعات من حيث هي أفكار والتي كان يعتبرها هوسّرل –أيضا– بذات المعنى؛ أي أن الماهية (Eidos) مطابقة للفكرة (Idée)، فانغاردن يرى أن الموضوع القصدي الماهوي قد يشير إلى مضمون واقعي أو مثالي، بينما الأفكار فهي غير قابلة للتحدد، أي تكون مستقلة تمامًا عن المضامين الواقعية في إطارها الزمكاني. ولذلك يطرح في كتابه "العمل الفني الأدبي" (La valeur artistique littéraire 1931)، فينومينولوجيا استيطيقية (phénoménologie esthétique) تتمحور حول الموضوعات القصدية الواقعية وتعتبر أنطولوجيا تعددية[2] (ontologie pluraliste) تدرس الموضوعات لحسابها الخاص وليس لحساب ذاتية ترنسندنتالية، لأن فحص الخبرة الجمالية يكون فحصًا لأبنية ماهوية معطاة للوعي القصدي من خلال تجربة واقعية لا تتأسس على أفق مسبق، بل تتأسس على توافق فعلي بين الموضوع القصدي وفعل القصد في التجربة الجمالية للعمل الفني.

[1] سعيد توفيق، الخبرة الجمالية، المرجع السابق، ص 322.

[2] المرجع نفسه، ص ص 323، 324.

خاتمة

خاتمة

يمكن القول –ختامًا– أن الفكر الترنسندنتالي هو فكر إرتقائي وحركة للعلو الفكري على الواقع الحسي المتغير، وفي معاصرة كثرت متغيراتها صار لابد من ضرورة التعالي نحو ترنسندنتالية الفكر التي هي دعوة للعلو مثلما هي دعوة للتفلسف الحق، لأن التفلسف لا يكون بغير تعالي عن كل شيء وفوق كل شيء. كما يمكن القول أيضا أن فينومينولوجيا هوسّرل كانت من أبرز الحركات الفلسفية المعاصرة، ومن أهم النماذج حول الترنسندنس الفلسفي الذي تحولت الفينومنولوجيا –من خلاله– من فينومينولوجيا ناشئة إلى فينومينولوجيا ترانسندنتالية، وفي مضمون ذلك يمكن إيجاز أهم النقاط التي تم التوصل إليها من خلال هذا البحث في ما يلي:

أولاً: إن "الفينومينولوجيا" (La phénoménologie) هي حركة فكرية معاصرة تأسست مع هوسّرل في القرن العشرين، حين جعلها فلسفة متكاملة بوصفها منهجًا وعلمًا كليًا، لدراسة ظواهر الوعي باعتبارها ماهيات خالصة تمثل حقيقة الأشياء، تحت شعار "التوجه نحو الأشياء ذاتها"، الأشياء في وجودها المحايث ضمن الحدس الترنسندنتالي.

ثانيًا: إن "الترنسندنتالي" (transcendental) هو لفظ يصف موجودات وأفكار تتعالى عن العالم المادي المتغير، وهو مصطلح ظهر في العصر الوسيط مع الفلاسفة السكولائيين –ثيولوجيًا– للدلالة على ما يتجاوز مقولات أرسطو، مثل الواحد، والحق، والخير. غير أن مفهومه الفلسفي قديم قدم الفلسفة ذاتها، فقد تعرضت اليه الفلسفات القديمة –خصوصًا– ضمن مثالية أفلاطون، ليتم استخدامه فيما بعد بمعاني متعددة ضمن فلسفات لاحقة؛ مثل الفلسفة الديكارتية، والفلسفة الكانطية التي جعلت الترنسندنتالي –إبستيمولوجيًا– بمعنى المبادئ القبلية السابقة عن التجربة، ليطوره هوسّرل في الفينومينولوجيا إلى فكرة الأنا الترنسندنتالي الذي يتميز بتجربة شعورية محايثة تنقله من الموقف الطبيعي المادي إلى الموقف الفينومينولوجي الترنسندنتالي في إطار الفينومينولوجيا الترنسندنتالية.

ثالثًا: إن الفينومينولوجيا الترنسندنتالية (La phénoménologie Transcendantale) هي فلسفة إبستيمولوجية لنقد الكيفيات القبلية لقيام المعرفة، وهي بهذا المعنى؛ إحياء للفلسفة النقدية الكانطية لكن بشكل أكثر راديكيالية، لأن الفينومينولوجيا لا تفترض مبادئ سابقة عن التجربة، بل تجعل من التجربة الشعورية الخالصة للأنا الترنسندنتالي مصدرًا لكل يقين معرفي، أما مهمتها الأساسية فتتمثل في تحليل التجربة الشعورية خلال العمليات الإدراكية للعالم، وهي بذلك تمثل منهجًا ترانسندنتاليًا للمعرفة، وفلسفة ترانسندنتالية للمعنى.

رابعًا: تكمن ترانسندنتالية المنهج الفينومينولوجي في اعتماده على يقين الأنا الترنسندنتالي في المعرفة، وذلك من خلال منهج التعليق الإيبوخي والرد الماهوي والترنسندنتالي، بالإضافة إلى عملية التقوّم، في قصدية تأسيسية تتجاوز الوصف الفينومينولوجي إلى التأسيس الترنسندنتالي للمعنى إنطلاقًا من إنجازات الذاتية الترنسندنتالية التي تحمل معاني العالم ونماذجه الثابتة بشكل قبلي ترنسندنتالي، وهاته الإنجازات لا تكون سوى ضمن أفق التجربة الشعورية ووعيها الباطني بالزمان الترانسندنتالي المستقل عن الزمان الموضوعي.

خامسًا: تعتبر الفينومينولوجيا فلسفة للمعنى الترنسندنتالي، باعتبارها حلاً لأزمة غياب المعنى، التي ظهرت على اثر التطورات العلمية للقرن التاسع عشر، نتيجة لفشل الفلسفة الترنسندنتالية الكلاسيكية في تأسيس فلسفة كلية صارمة، مما أدى الى سيطرة النزعة الموضوعية والثقافة التقنية على نظرة العالم، وتغييب دور الفلسفة ومساءلاتها الإنسانية. ولتجاوز هاته الأزمة كان لابد من تحويل الفينومينولوجيا إلى فينومينولوجيا ترنسندنتالية لعالم المعيش، وذلك من خلال طرحها لفكرة التقوّم الذاتي الترنسندنتالي للعالم في إطار البينذاتية الترنسندنتالية أو التذاوت من حيث هو فعاليات مشتركة للذاتيات الواعية في تجربتها المعاشة التي تكتسب ضمنها الذات خبراتها وتحقق ضمنها إنجازاتها دون فصل عالم العلم عن عالم المعيش الإنساني، لأن عالم المعيش هو العالم التأسيسي للمعنى.

خلاصة القول؛ إن الترانسندنتالية هي توجه فلسفي نحو التعالي، تعالي الإله عن العالم، أو تعالي الفكر عن المادة، أو تعالي الوعي عن الحس، أمّا –فينومينولجيًا– فهي تمثّل تعالي الذات عن الموضوع، لأن ترانسندنتالية الفينومنيولوجيا عند هوسّرل هي تأصيل لمشروع الفينومينولوجيا الترنسندنتالية الذي يتأسس على إنجازات الذاتية الترنسندنتالية الواعية وفعالياتها المتبادلة ضمن المعيش التذاوتي، وهي فلسفة تأسيسية للمعنى الخالص إنطلاقًا من تجربة شعورية محايثة ضمن أفق ما قبلي لنماذج التكوين الفينومينولوجي، ليصبح العالم المادي مفارقًا لأحكام الأنا الترنسندنتالي بالتعليق الإيبوخي والإختزال. وعلى الرغم من الطرح المثالي لهاته الفلسفة، إلاّ أنها شكّلت نظرية ترانسندنتالية معتبرة لحل أزمة عالم المعيش، العالم الذي جعلته العلوم الأوروبية عالم موضوعي، مجرد من تكويناته الذاتية. كما يعود الفضل للفينومينولوجيا الترنسندنتالية في إعادة إحياء المسألة الترانسندنتالية ضمن الدراسات الفلسفية المعاصرة، حيث نجد "لفيناس" (Levinas: 1906-1995) في مؤلف "الزمان والآخر" يواصل الخوض في المجال الترانسندنتالي لكن ليس من خلال ذاتية الوعي، بل من خلال علاقة الذات بالآخر، اذ يجعل لفيناس من "الآخر" دلالة ترانسندنتالية تتجاوز المعنى الذاتي، لأن الآخر ليس موضوعًا تمتلكه الذات، إنما هو لغز تنسحب داخله[1] –خاصة– في العلاقة الإيروسية، فهو معنى مفارق للمعاني الذاتية[2] باعتبار أن الوجه يتجاوز كل فهم، ويحضر في الأفق بوصفه دلالة متفردة. وبالتالي يطور ليفيناس الذاتية الترنسندنتالية لهوسّرل، ليقيم فينومينولوجيا ايتيقية تقوم على الغيرية الترنسندنتالية من حيث هي تجربة ترانسندنتالية خالصة.

[1] ايمانويل ليفيناس، الزمان والآخر، ترجمة وتقديم جلال بدلة، معابر للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2014، ص 96.

[2] الطيب بوعزة، يوسف بن عدي، الهيرمونيطيقا واشكالية النص، المرجع السابق، ص 32.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. هوسّرل إدموند، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، ترجمة اسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2008.
2. هوسّرل إدموند، أفكار ممهدة لعلم الظاهريات الخالص وللفلسفة الظاهراتية، تر: أبو يعرب المرزوقي، جداول، بيروت، لبنان، ط1، 2011
3. هوسّرل إدموند، الفلسفة علمًا صارمًا، تر: محمود رجب، المجلس الاعلى للثقافة، ط1، 2000.
4. هوسّرل إدموند، تأملات ديكارتية –مدخل الى الفينومينولوجيا – تر: تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت).
5. هوسّرل إدموند، فكرة الفينومينولوجيا، ترجمة فتحي إنقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007.

ثانيا: المراجع

أ. بالعربية:

1. إبراهيم مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، (د.ط)، (د.ت).
2. أفلاطون، المحاورات الكاملة –محاورة بارمينيدس– المجلد2، تر: شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1994.
3. إيمانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن ان تصير علمًا، تر: نازلي اسماعيل حسين ومحمد فتحي الشنيطي، موفم للنشر، الجزائر، (د.ط)، 1991.
4. إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، بيروت،(د.ت).

5. ايمانويل ليفيناس، الزمان والآخر، ترجمة وتقديم جلال بدلة، معابر للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2014.
6. رونيه ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، تر: عثمان أمين، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 2009.
7. سعيد توفيق، الخبرة الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1992.
8. سماح رافع محمد، الفينومينولوجيا عند هوسّرل، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ط1، 1991.
9. سماح رافع محمد، المذاهب الفلسفية المعاصرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1973.
10. صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة في قراءة نتشه، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، (د.ط)، 1999.
11. الطيب بوعزة، يوسف بن عدي، الهيرمونيطيقا وإشكالية النص، مؤمنون بلا حدود للدراسات الفلسفية والابحاث، الرباط، (د.ط)، 2016.
12. مارتن هايدغر، الكينونة والزمان تر: فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت –لبنان، 2012.
13. نادية بونفقة، فلسفة إدموند هوسرل –نظرية الرد الفينومينولوجي– ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط) 2005.
14. يوسف حامد الشين، الفلسفة المثالية –قراءة جديدة لنشأتها وغاياتها– منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 1998.

ب. بالاجنبية:

1. Jean-Francois Lyotard, La phénoménologie, Presses Universitaires de France, Editions Delta, paris, 1996.
2. Marc Le Ny, Découvrir la philosophie contemporaine, Édition Eyrolles, Paris, 2009 .

3. Paul Ricoeur, A l'école de la Phénoménologie, Librairie philosophique J.vrin, paris, 1986.
4. William Turner, History of Philosophy, Ginn & company, U.S.A, Boston and London, 1903.

ثالثا: المعاجم والموسوعات:

أ. بالعربية:

1. أندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثالث R-Z، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001.
2. أندرييه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني H-Q، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2 ،2001.
3. تد هوندرتش، دليل اكسفورد، ج1، ترجمة نجيب الحصادي، مراجعة عبد القادر الطلحي، المكتب الوطني للبحث والتطوير، (د.ت).
4. عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة (ملحق)، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1996.
5. عبد المعم حنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000.
6. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ط8، بيروت –لبنان، 2005.
7. مجمع اللغة العربية (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، أحمد النجار)، المعجم الوسيط، دار الدعوة، ط5، القاهرة، 2011.
8. مجموعة من الأكاديميين العرب، موسوعة الأبحاث الفلسفية، الفلسفة الغربية المعاصرة– صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج– ج1، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2013.
9. وهبة مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 1998.

ب. بالأجنبية:

1. Jonathan Rée and J. O. Urmson, The Concise Encyclopedia of Western Philosophy, Routledge, the USA and Canada, Third Edition, 2005.
2. Louise-Marie Morfaux , Nouveau vocabulaire de la philosophie et des sciences humaines, ARMAND COLIN, Paris , 2005.

رابعا: المجلات:

1. أ.م يوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، تر: عزت قرني، عالم المعرفة، الكويت، العدد 165، 1992.
2. الحسن سليماني، جدلية التعالي والمحايثة في الفلسفة الحديثة، تبين للدراسات الفكرية والثقافية، العدد 25، صيف 2018.
3. محمد بوحجلة، مشروع تحويل الفلسفة الى تداولية ترانسندنتالية عند كارل أوتو آبل، الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، قسم العلوم الإجتماعية، العدد 19، جانفي 2018.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

مقدمة ..... أ.

الفصل الأول: مفاهيم حول الفينومينولوجيا والمسألة الترانسندنتالية.

توطئة .....06.

المبحث الأول: في معنى الفينومينولوجيا .....07.

المبحث الثاني: حُدُود مفهوم الترانسندنتالي .....17.

الفصل الثاني: الإستئناف الفينومينولوجي لمفهوم الترانسندنتالي.

توطئة .....27.

المبحث الأول: محاولات في التأصيل الترانسندنتالي .....28.

المبحث الثاني: هوسرل والتحوّل نحو مفهوم الترانسندنتالية .....38.

الفصل الثالث: ترانسندنتالية الفينومينولوجيا والفينومينولوجيا الترانسندنتالية.

توطئة .....48.

المبحث الأول: التأسيس الترانسندنتالي للمنهج .....49.

المبحث الثاني: النظرية الترانسندنتالية لعالم المعيش .....58.

خاتمة .....69.

قائمة المصادر والمراجع .....73.

فهرس الموضوعات .....78.

ملخص المذكرة:

تهدف هاته الدراسة إلى تسليط الضوء على التوجه الترانسندنتالي لهوسّرل ضمن مشروع الفينومينولوجيا الترانسندنتالية من زاويتين مختلفتين؛ الأولى، من خلال ترانسندنتالية المنهج الفينومينولوجي الذي يقوم على الذاتية الترانسندنتالية والرد.

والثانية، من خلال النظرية الترانسندنتالية لعالم المعيش التي تحدد الفينومينولوجيا باعتبارها فلسفة ترانسندنتالية لأفق التذاوت الترانسندنتالي، وتعيد النظر في مفهوم المفارقة الموضوعية للوعي، لتربط بين العالم العلمي وعالم المعيش التلقائي من خلال المحايثة الذاتية للمعاني الترانسندنتالية للعالم.

الكلمات المفتاحية:

الفينومينولوجيا، الترانسندنتالي، الوعي، الرد، المحايثة، المفارقة، الذاتية، التذاوت، الأفق.

Résumé de la mémoire:

Cette étude vise à éclairer l'approche transcendantale de Husserl dans le projet de phénoménologie transcendantale de deux côtés différents ; Le premier, à travers la transcendance de La méthode phénoménologique, qui repose sur la subjectivité transcendantale et la Réduction.

La seconde, à travers la théorie transcendantale du monde du vivant, qui définit la phénoménologie comme une philosophie transcendantale de l'horizon de Intersubjectivité transcendantale et reconsidère le concept de transcendent Objectif de la conscience, pour relier le monde scientifique au monde de la vie spontanée, à travers Émanent subjectif des significations transcendantales du monde.

les mots clés:

Phénoménologie, transcendantal, conscience, Réduction, Émanent, transcendent, subjectivité. Intersubjectivité, Horizon.